

دفاعات فلسفية
نصوص مختارة

2

الطبيعة و الثقافة

إعداد وترجمة

محمد سبيلا و عبد السلام بنعبد العالي



الطبيعة والثقافة

صدر ضمن سلسلة دفاتر فلسفية

2

الطبيعة والثقافة

دفاتر فلسفية نصوص مختارة

2 - الفلسفة الحديثة -

الثقافة والطبيعة

إعداد وترجمة

محمد سيلا وعبد السلام بنعبد العالي

دار توبقال للنشر

عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار

بلفدير، الدار البيضاء 05 - المغرب

الهاتف : 24.06.05 / 42

تمّ نشرُ هذا الكتابِ ضمنَ سِلْسِلَةِ
دفاترِ فلسفيةِ

الطبعة الأولى: 1991
جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع القانوني: 1991/683
سحب بمطبعة فضالة . المحمدية

تَمَهِيد

لا بدّ في البداية من رفع التباس أساسي بالتمييز بين معنيين للطبيعة: (1) الطبيعة الخارجية، وهي مجموع الموجودات الماثلة في العالم خارج الأشياء المصنوعة من طرف الإنسان، (2) الطبيعة الداخلية أو الطبيعة البشرية، وهي مجموع السمات والقوى الجبلية في الإنسان، أي السمات الثابتة لديه والتي لا تتوقف على مجتمع بعينه أو بيئة بعينها، كما تعني الجانب الطبيعي في الإنسان من رغبات وعرائز ودوافع وغيرها مما يمس الجانب البيولوجي في الإنسان بالخصوص. ولتكوّن المقارنة بين الطبيعة والثقافة مقارنة دقيقة فلا بد كذلك من التمييز بين المعاني المختلفة للثقافة، سواء من حيث اتساع المعنى (المدلول الأنتروبولوجي للثقافة) أو ضيقه (الثقافة العالمية) أو من حيث دلالاته ومستوياته. وهذا هو ما يبرز مسألة الوقوف عند المعاني والاصطلاحات والدلالات.

وبذلك يتعين التوقف قليلاً عند إشكالية العلاقة بين الطبيعة والثقافة في صورتها التقليدية، أي في الصورة التي تقدمها الأنتروبولوجيات والأنتوغرافيا وبخاصة عند مسألة الخط الرابط / الفاصل بين الطبيعة والثقافة، هل يتمثل هذا الخط في اللغة أم في التحريم الجنسي للأقارب أم في التقنية أم في نشوء الثقافة نفسها، أم في نشوء السلطة كما تميل إلى ذلك النظريات التي تميز حالة الطبيعة وحالة الثقافة، أم غير ذلك.

ومن حيث إن الثقافة هي التجسيد الفعلي لميل النوع البشري نحو التمييز عن الطبيعة، وبالتالي عن الحيوان، وبما أن هذا الميل يسكن ثقافة النوع البشري، فإن الثقافة تتجه نحو ترويض الطبيعة تحقيقاً لذلك، سواء تعلق الأمر بالطبيعة الخارجية أو بالطبيعة الداخلية، فالثقافة تُراكم المعارف والخبرات التي يكتسبها الإنسان بهدف الاستفادة من الطبيعة وتسخيرها واستخراج خيراتها لإشباع حاجاته المختلفة، ولذلك فهي تتمثل وتتجسد في الاختراعات التقنية والصناعات المختلفة التي تستهدف إشباع الحاجات الانسانية. إلا أن الإشباع والرغبة في تحقيق التمييز ليست هي الأهداف الوحيدة للثقافة، ذلك أن الطبيعة، بجانب كونها كانت مستودع الخيرات الكفيلة بإشباع الإنسان، هي أيضاً في حد ذاتها تهديد للإنسان بمظاهر عنفها وقسوتها من حر

ويرد وفيضان وزلازل وبراكين وغيرها. وهو ما يحفز الإنسان على مُراكمة الخبرة في مواجهة عتو الطبيعة. وهنا تصبح وظيفة الثقافة هي حماية الإنسان من عسف الطبيعة وحماية الإنسان من عسف الطبيعة واستخراجه لخبراتها وترويضه لها يمر عبر ترويض نفسه، بل يمكن أن نقول إن ترويض الطبيعة وتسخيرها يمر عبر ترويض الإنسان نفسه وتسخيره. ودور الثقافة هنا هو تهيئة الآليات الاجتماعية والنفسية لترويض الكائن البشري أو الطبيعة البشرية لتستجيب لمتطلبات الثقافة، حيث يتم تكييف سلوك الفرد وشخصيته وتنظيم وتسخير جسمه وطاقته الجنسية والتحكم في إدراكه وأحلامه ولغته وخياله خدمة للثقافة أو الحضارة.

لكن الثقافة كثيراً ما تصطدم بالطبيعة - وبخاصة الطبيعة البشرية - وتصادمها حيث تصبح تحكماً تعسفياً في طاقة الحياة (فرويد) وحرماناً للإنسان من المتعة واللذة باسم قيم عليا (نيشئه) أو تسخيراً للجسم والجنس خدمة لأهداف الحضارة (ماركوز). وبذلك تتحول الثقافة من تعبير عن الإنسان إلى أداة لقمعه وكبت غرائزه. وكلما كانت الثقافة ذات طابع أخلاقي صارم* كانت تبيحها حدوث العصاب والأمراض النفسية على نطاق واسع.

إضافة إلى ما سبق ارتأينا الانفتاح على نقاش تقليدي في تاريخ الفكر، وهو الصراع بين الفطري، أي ما ينتمي إلى الطبيعة، وبين ما هو مكتسب أي ما ينتمي إلى المجتمع والثقافة وما يتوصل إليه بالتعلم وليس ما هو معطى قبلياً، وقد شمل هذا النقاش قضايا كالذكاء، هل الذكاء طبيعي (وراثي) أم مكتسب؟ هل العدوانية فطرية أم مكتسبة؟. وهنا تتوزع الاتجاهات والآراء بين القائلين بالاكتساب والتعلم مع ما يعنيه ذلك من ارتباط بالتجربة ومن نزعة مادية. وفي هذا الصدد نجد مواقف متطرفة كتلك التي تتبناها وتدافع عنها السوسيوبولوجيا التي ترى أن ثقافتنا ذاتها مسجلة في خلايانا الوارثة وأن هناك حتمية بيولوجية (طبيعية) للثقافة ذاتها ينتمي في إطارها أي معنى أو مدلول لما هو مكتسب.

وإذا كانت النصوص المقدمة هنا توسع إلى حد ما إشكالية العلاقة بين الطبيعة والثقافة وتخرج بها عن إطارها التقليدي، إطار الإشكالية الأنثروبولوجية، فإن هذا التوسيع من شأنه أن يسلط أضواء أخرى على الإشكالية ويخرج بها من الدائرة البدائية، دائرة انفصال الثقافة عن الطبيعة لتكشف عن الآليات المستمرة للصراع بين الطبيعة والثقافة، سواء في تكييف الثقافة للطبيعة أو في ردود فعل الطبيعة ذاتها على الثقافة.

محمد سيلا وعبد السلام بنعبد العالي

1. تحديدات: في الثقافة والطبيعة

1.1. مَعْنَى الطَّبِيعَةِ

جَانُ فَاان

كلمة *physis* الاغريقية، والكلمة اللاتينية *natura* تعنيان القدرة على النمو الكامنة في كل الأشياء، أي القوة الحاضرة حضوراً كلياً، حضوراً شمولياً، وهي قدرة مهيمنة يجهد الإنسان نفسه داخلها دوماً. فالسماء والأرض والكواكب والحيوانات وكل الأضداد والمفارقات والإنسان نفسه كلها توجد ضمن الطبيعة. وهذا هو المعنى الذي يستعيده كل من نيتشه وهيدجر من الفلاسفة السابقين على سقراط.

إن الطبيعة - فيما يقول هيراقليط - تحب أن تختفي. والإنسان يقتادها إلى العقل (اللوغوس). فهناك إذن رابطة عميقة بين الفكرة الأولية المتعلقة باللوغوس وفكرة الطبيعة. فالطبيعة إلهية، إن شئنا، لكن ليس بمعنى أنها تشارك في العنصر الإلهي الموجود فوقها، بل بمعنى أنها إلهية بذاتها، وهذا على الأرجح هو ما يودُّ طاليس الإشارة إليه عندما يقول إن الطبيعة تطفح بالآلهة. ومن ثمة نفهم التمازج الذي يقيمه السفسطائيون بين الطبيعة والتيكني *techné*، وبين الطبيعة والنواميس. وهذا المعنى هو الذي يرتبط به التصور الأرسطي عن الطبيعة، والذي يرى فيها مصدر الحركة (...).

لكن ابتداءً من أفلاطون، سيظهر بجانب هذا المعنى الأول للطبيعة معنى ثانٍ. وهو المعنى الذي يشير إليه أرسطو عندما يقول بأن طبيعة شيء ما هي فكرته أو شكله *sa forme*. « وكل ماهية يقال عنها طبيعة، و الطبيعة الأولى هي الماهية ». وفي حين أنه لم يكن في المعنى الأول إلا طبيعة واحدة، فإن هناك الآن طبيعات معقولة متعددة. وهكذا يمكن أن نقول إنه مقابل واحدة الطبيعة لدى ما قبل السقراطيين ستحل تعددية الطبيعيات متصورة كماهيات، وأنه ستحل محل دينامية التصور الأول، الثبوتية في التصور الثاني.

لكن التصور الأول سيظل قائماً بجانب التصور الثاني؛ وسيتصور أرسطو الطبيعة في

أغلب الأحيان كدينامية وكمبدل للحركة.

تنقسم الفلسفة، في المدرسة الأرسطية، إلى عدة أجزاء، وفي حين كانت الطبيعة *physis* والمنطق *Logos* والأخلاق *Ethos* لدى ما قبل السقراطيين تشكل وحدة غير قابلة للانقسام، فإن كلا من هذه الحدود والألفاظ ستصبح عنواناً لنوع محدد من الدراسة، منفصل عن العنصرين الباقين، الفيزياء، والمنطق والأخلاق. (...)

ومهما يكن، فإن المهم بالنسبة لنا، هو التمييز بين الطبيعة كقوة كونية والطبيعة كماهية أفلاطونية. وقد تصارعت هاتان الفكرتان عبر التاريخ كما التحقت إحداهما بالأخرى أحياناً. ومع المسيحية ظهر تصور للطبيعة كواقع تقيمه الإرادة الإلهية، وهي الفكرة التي سنشاهدها لدى كبار الفلاسفة العقلانيين في القرن الثامن عشر الميلادي. فديكارت يستخرج قوانين الطبيعة من الصفات الإلهية. وقد تحدث الكثيرون بالخصوص عن قوانين الطبيعة باعتبارها نظاماً كبيراً تشرع له الذات الإلهية. (...)

ولحد ذلك الوقت نجد أنفسنا أمام فكرتين كبيرتين عن الطبيعة، الطبيعة كقدرة كونية شاملة، والطبيعة كماهية. ومع تطور العلم الحديث ستأخذ فكرة الطبيعة كماهية معنى دقيقاً جديداً نجد بذوره الأولى عند الفيثاغوريين وأفلاطون. وهكذا ستحتل فكرة الماهية العاصية للعالم مكانة الصدارة. ومن بين الطبيعات البسيطة لدى ديكارت هناك طبيعة واحدة هي الامتداد، الذي سيمصيح هو موضوع العلم الفيزيائي. وقد عبر غاليلي عن ذلك، بلغة فيثاغورية قائلاً بأن كتاب الطبيعة مكتوب بالمثلثات والكرات والدوائر. وهكذا، وبالتدرج، سَنُحَلِّي فكرة القوة الحاضرة حضوراً شاملاً وقويماً، والتي نجد لها عند ما قبل السقراطيين، المجال ليحل محلها تصوّر عن الطبيعة كقوانين، وبذلك أخذنا نشاهد تحولاً أساسياً في مدلول الطبيعة.

لكن المعنيين ظلاً - كما رأينا - متواجدين أحدهما بجانب الآخر. وبدون أن يكون لدى سبينوزا أية بقية من بقايا السحر والشعوذات التي نجد لها لدى بعض مفكري عصر النهضة، فإن على الطبيعة المطبوعة *Natura naturata*، التي هي مجمل الأنماط التي يتعين دراستها علمياً أن ترفعا إلى مستوى الطبيعة الطابعة *Natura naturans*، أي إلى الطبيعة الفاعلة أي الله. ويفضل هذا التصور تمكن سبينوزا من تقبل التفسيرات الميكانيكية للظواهر الخاصة وللعالم في مجموعه كشيء إلهي.

أما ليبنتز فقد فكر في القدرة على البرهنة على التناغم والانسجام القائم بين عالم الطبيعة الذي تحكمه مبادئ الميكانيكا وعالم العناية الإلهية الذي يحكمه مبدأ الغائية (...)

ورغم أن كمنط كان قد تأثر أولاً بليبنتز ثم بهيوم وبروسو، فإنه يعارض هؤلاء المفكرين الثلاثة من حيث إنه يبقى على الوجود الواقعي للمشر في العالم، وهو ما يدفعه إلى رفض التصور العقلاني لدى ليبنتز، والأطمعنان الوجداني لروسو، ومسألة الثقة في الطبيعة التي افترضها هيوم. وقد وعى كمنط واقع كون الطبيعة فكرة، أي مثلاً يستعمله الفكر لتوحيد الظواهر (...)

وإذا انتقلنا إلى الفلسفة المعاصرة نجد هيدجر في فلسفته الثانية يدعونا إلى العودة إلى الفكرة القديمة عن الطبيعة كما تصورها الفلاسفة قبل السقراطيون، أي الطبيعة كشيء مقدس وكمبدأ للقوة والنمو.

Jean Wall, *Traité de métaphysique*, Payot, 1968, p. 650 - 656.

2.1 . الشَّافِيَّةُ وَالشَّقَافَةُ

بُودُونُ وَبُورِيكُو

الثقافية هي عبارة تنتمي إلى الأنتروبولوجيا (الأنثروبولوجيا الثقافية والثقافية إذا لم يكن ممكنا اعتبارهما مترادفين، فهما على الأقل تعبيران متقاربان جدا)، ولكنها قابلة للنقل إلى علم الاجتماع. ويقوم الأفق الثقافي على جملة من الاقتراحات تميل إلى الظهور مجتمعة. يمكن التشديد على هذا الاقتراح أو ذلك، حسب المؤلفين والأطر العامة المدروسة. فعلى غرار البنيوية والوظائفية، ينبغي أن تدرك الثقافية في آن واحد، باعتبارها نموذجاً مثالياً، أي باعتبارها إطاراً للفكر ثم من خلاله تطوير النظريات والأبحاث الحسبة، وباعتبارها رؤية للعالم *Weltanschauung* أي باعتبارها تصوراً إيديولوجياً للمجتمعات.

الاقتراح الأول: ترتبط بنية الشخصية ارتباطاً وثيقاً بالثقافة المميزة لمجتمع معين، معتبرين الثقافة تحديداً نظام القيم الأساسي للمجتمع. وهكذا يعتبر كاردنر Kardiner أن كل نظام اجتماعي ثقافي يتميز « بشخصية أساسية ». فقد كتب يقول: « الأنا هي ترسب ثقافي ». ويعتبر ماكلييلاند Maclelland، أن بعض المجتمعات تجعل من الكمال - هذا المفهوم الذي يعني الفوز والنجاح في آن معاً والذي يتم التعبير عنه غالباً بكلمة *Accomplissement* - قيمة مركزية. تميل الحاجة إلى الكمال *need for achievement* لأن تكون جزءاً أساسياً من شخصية الأفراد الأعضاء في هذه المجتمعات. وبالترابط الطبيعي مع هذا الاقتراح الأول، يميل الثقافيون في تحليلاتهم للنظم الاجتماعية إلى إعطاء وزن حاسم للمجتمعية التي تنتقل بواسطتها القيم الأساسية لمجتمع ما، من جيل إلى آخر.

الاقتراح الثاني: يميل كل مجتمع إلى تشكيل كل ثقافي فريد. يمكن لمجتمعات متشابهة لجهة درجة تطورها الاقتصادي، أن تكون مختلفة عن بعضها بقوة من الناحية الثقافية، كما يؤكد الشعور العام وتثبت التجربة المباشرة. إن الألمان مختلفون ثقافياً عن الإنكليز، وكما يلاحظ لينتون Linton، إذا أوكل مسافرٌ وصل للتو إلى أحد المرافئ النروجية، إلى حمالٍ، مهمة قبض مبلغ معين من المصرف، فإنه يكون متأكداً تقريباً من أن الحمال سيمود إليه مع المبلغ. أما في إيطاليا، فيكون متأكداً بأنه لن يَرَهُ أبداً.

الاقتراح الثالث وهو يكمل السابق: يميل نظام القيم للمجتمعات إلى الانسجام بقيم غالبية

أو صيفية، الأمر الذي لا يستبعد، لكي نستعمل تعابير كلوكوهن Kluckhohn، ووجود قيم منحرفة وقيم متنوعة، وهكذا يرى بنديكت R. Benedict، أن الهنود الحمر في المكسيك الجديدة يعلقون أهمية أساسية على القياس والتناسق ووحدة الانسان مع الكون؛ إنهم يشكلون مجتمعاً متوازناً وخاضعاً للقياس. بينما يفرق السكان الأصليون في الشاطئ الشمالي الغربي لأمريكا، على العكس، في مناخ تناقسي ثابت، حيث يبذل كل واحد جهده ليرهن على تفوقه، ولينتصر على منافسيه، حتي بالعنف عند الاقتضاء؛ إنهم يشكلون مجتمعاً ديونيزيا. ويرى بتارسونز parsons أن الأمريكيين يعلقون أهمية على الكمال achievement أكثر من الألمان، في حين يعلقون أهمية أقل منهم على «المحافظة على النماذج الثقافية». وتعتقد مارغريت ماد M. Mead، أن «الأمريكيين يرون العالم مدى واسعاً وقابلاً للتطويع، يقع تحت رقابة الإنسان، نبني عليه ما نشاء (...). والشعور الهام هو إمكانية الإشراف على البيئة»*. أما بالنسبة للانكليز، فإن «العالم هو مدى طبيعي يتكيف معه الإنسان، لا ينسب لنفسه فيه أي إشراف على المستقبل، وإنما فقط التبصر المجرب للفلاح أو للمزارع...». ويعتبر الإنسان المشارك الأسفر الله».

الاقتراح الرابع: تميل ثقافة مجتمع معين إلى الانتظام في جملة من العناصر المتناسكة والمتكاملة فيما بينها، «إن الطموح الثاني للانثروبولوجيا، على حد قول ليفي شتراوس (الذي لا يمكننا تصنيفه بين الانثروبولوجيين الثقافويين، ولكنه لا يتميز عنهم حول هذه النقطة) هي الكلية. وهو يرى في الحياة الاجتماعية، نظاماً ترتبط به عضواً كل الجوانب»**. لقد تم توضيح هذا الاقتراح نتيجة لجهود بنديكت R. Benedict، لاستخلاص نماذج الثقافة لأرباب الثقافة وتصنيف هؤلاء الأرباب.

أما الاقتراح الخامس: يحيا الإنسان في عالم رمزي يخلقه هو. كل حقيقة تكون بالنسبة له رمزية. فالأحكام والتقييمات والمدرجات تكون كلها نسبية مع النظام الثقافي الذي ينتمي إليه. ويعتقد هرسكوفيتش Herskovits، الذي يستعيد بأمانة كاسيرير Cassirer حول هذه النقطة، أن الثقافة هي قياس كل الأشياء، بما أن كل «حقيقة واقعية» يتم إدراكها عبر نظام ثقافي معين.

L'anthropologie comme science humaine, P. 123 *

Antropologie structurale, P. 399 **

بودون وبوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم حداد، بيروت، م.ج. 1986، ص. 228 - 229.

3.1. الشَّافَةُ كَأَمْرِ وَاقِعِ

مَالِينُوفْسْكِي

إن السلوك المميز للكائن المتمدن يختلف جوهرياً عن سلوك الحيوان في حالته الطبيعية. فمهما كانت ثقافة الإنسان البدائي بسيطةً فإنه كان يملك مجموعة من الأدوات، والأسلحة، والمعدات المنزلية؛ وقد تطور في وسط اجتماعي يساعده ويراقبه في نفس الوقت؛ فهو يتواصل مع الآخرين بواسطة اللغة، ويتوصل إلى صياغة مفاهيم عقلية ودينية أو سحرية. فالإنسان يتوفر على مجموعة من الممتلكات المادية، ويحيا ضمن نظام اجتماعي، ويتواصل بمساعدة اللغة ويستقي حوافز سلوكه من منظومة القيم الروحية للجماعة. وتلك هي المجموعات الأربع الكبرى التي نصنف ضمنها مجمل المكاسب الثقافية للإنسان. فنحن لا نعرف الثقافة إلا من حيث هي أمر واقع وقائم؛ (...)

نبدأ في صياغة هذه الفرضية المتمثلة في أن المقولات الثقافية الرئيسية قد تواجدت في نفس الوقت منذ البداية في حالة تكامل واعتماد متبادل. فهي لم تتمكن من أن تنشأ واحدة تلو الأخرى، ولعله من المستحيل إقامة تتابعها في الزمن. فالثقافة المادية مثلاً لم تتمكن من الظهور قبل أن يتمكن الإنسان من استخدام أدواته وفق التقنية التقليدية التي تقتضي قدراً من المعرفة كما نعلم. ومن ناحيتها فإن المعرفة والتراث التقليدي لا يمكن تصورها بدون وجود الفكر المفهومي واللغة والثقافة المادية، وقد ظل الأمر كذلك طيلة كل فترات التطور بما في ذلك الفترة الأولى. ومن ناحية أخرى فإن المباشرات الأولى للحياة، باستعمال الأدوات المألوفة ووسائل التنقل في الحياة اليومية، هي الشروط الأولية الضرورية لكل تنظيم اجتماعي. فالمنزل والعتبة ليسا فقط رموزاً للحياة المنزلية، بل هي عوامل اجتماعية حقيقية تلعب إحدى أكثر الأدوار فاعلية في تشكيل علاقات القرابة. أما الأخلاق فهي القوة التي بدونها لا يكون الإنسان قادراً على الصراع ضد غرائزه، أو قادراً على تجاوز مستوى الحياة الغريزية، وهي المرجع الذي يرجع إليه في الحالة الثقافية حتى في أبسط أنشطته التقنية.

4.1. المعاني الثلاثة لكلمة ثقافة

سبِير

تشمل كلمة "ثقافة" ثلاثة معاني أو ثلاثة مجموعات من المعاني. فهي تستعمل أولاً بمعنى تقني من طرف الإثنولوجيين أو مؤرخي الثقافة لجمع كل عناصر الحياة البشرية، التي ينقلها المجتمع، سواء كانت مادية أو معنوية. وفي هذا المعنى فإن الثقافة ملازمة للإنسان ذاته لأنه ليس هناك إنسان - بما في ذلك أكثر الشعوب بدائية - لا ينخرط في عالم اجتماعي تسمه شبكة معقدة من الاستعمالات والعادات والمواقف التي يحافظ عليها التراث وينقلها. فتقنيات الصيد لدى قبائل بوشوما في جنوب إفريقيا، واعتقاد الهنود الحمر في أمريكا الشمالية في السحر، ومأساة بيريكليس اليونانية، والدينامو الكهربائي في الصناعة الحديثة كلها عناصر من الثقافة.. فبالنسبة للإثنولوجي يوجد عدد من أنماط الثقافة وأنواع لا نهائية من عناصر الثقافة، وذلك دون أن يسند لها أي حكم قيمة.

المعنى الثاني للكلمة هو الأكثر انتشاراً. وهو يشير إلى مثال أكاديمي إلى حد ما من التدقيق الفردي، المقام انطلاقاً من عدد صغير من المعارف والتجارب المتمثلة، لكنه مُشكّل على وجه الخصوص من مجموعة من ردود الفعل الخاصة المصادق عليها من طرف طبقة معينة وتراث معين...

والمعنى الثالث هو الأقل سهولة من حيث التعريف والتوضيح، وذلك، لأن الذين يستعملونه هم أيضاً نادراً ما يكونون قادرين على تحديد ما الذي يقصدونه بهذه الكلمة. وهذا المعنى الثالث يلتقي مع المعنى الأول (المعنى التقني) من حيث إنه يركز هو أيضاً على الممتلكات أو الخيرات الروحية للجماعة أكثر مما يركز على الممتلكات الروحية للفرد. ويلتقي أيضاً مع المعنى الثاني من حيث إنه يركز على عدد صغير من العوامل المستقاة من تيار الثقافة الواسع... وهكذا تقترب الثقافة من «الروح» أو «العبقرية» الخاصة بشعب من الشعوب دون أن يكون هذا اللفظ مرادفاً لها تماماً، إن هذه الكلمات، في استعمالها العائم تحيل بالخصوص على الماض السيكولوجي أو شبه السيكولوجي لحضارة قومية ما، في حين أن الثقافة تتضمن - بالإضافة إلى هذا الماضي - جملة تجليات ملموسة ومميزة. وهكذا يمكننا أن نعرف إجمالاً الثقافة بأنها الحضارة من حيث إنها تتضمن العبقرية القومية.

5.1. مَفْهُومُ الثَّقَافَةِ

رَآلَف بِيَلزُ وَهَارِي هُوِيَجَرُ

يبدلُ مفهومُ الثَّقَافَةِ إذن على أساليب السلوك التي تتصف بأنها تُكتسبُ عن طريق التعلم، وإن كان نطاق هذا المفهوم يتحدد في أنه لا ينطبق إلا على تلك الجوانب من السلوك المتعلم بالنسبة لجماعة بعينها. [...]

ومن الصعب أن تقدم تعريفاً دقيقاً لمفهوم الثقافة. وقد قام كروبر وكلاكهون بفحص ما يزيد على مائة تعريف من التعريفات التي قدمها الانتروبولوجيون للثقافة، ولم يجدوا بينها تعريفاً مقبولاً. ووجهُ العُصُور في كثير من التعريفات أنها لا تميز بوضوح بين المفهوم من ناحية الأشياء التي يشير إليها من ناحية أخرى. وإن كانت السمة المشتركة لمعظم تعريفات الثقافة هو أنها تكتسب عن طريق التعلم. وأن هذا التعلم يرتبط بجماعات أو مجتمعات معينة. ولعل مفهوم الثقافة الذي حدده كلايد كلاكهون يساعدنا في فهم السلوك البشري حيث يقول: «نقصد بالثقافة كل مخططات الحياة التي تكونت على مدى التاريخ، بما في ذلك المخططات الضمنية والصريحة، والعقلية واللاعقلية وغير العقلية. وهي توجد في أي وقت كموجات لسلوك الناس عند الحاجة». كما يوضح لنا هذا المفهوم تنوع السلوك البشري عندما ندرك أن لكل مجتمع إنساني ثقافته المتميزة أو كما يقول كلاكهون أيضاً، «إن ثقافة مجتمع من المجتمعات هي نسق تاريخي المنشأ يضم مخططات الحياة الصريحة والضمنية، يشترك فيه جميع أفراد الجماعة أو أفراد قطاع خاص معين منها»

رالف بيلز وهاري هويجر، مقدمة في الانتروبولوجيا العامة، الجزء الأول، القاهرة، 1976، ص. 137 - 139.

6.1. الإِنْسَانُ كَائِنٌ بِيَوِي - ثَقَافِي

مُؤَان

إذا أردنا الإفلات من هذه الدوامة فإنه يتعين علينا أن نقوم بعملية لحم ايستمولوجية بين علوم الحياة والعلوم الإجتماعية. ومن أجل ذلك يتعين أن نبدأ بتفسير كيف يكون الإنسان كائناً بيولوجياً - ثقافياً كلية.

أن نقول إن الإنسان كائن بيوثقافي، ليس معناه فقط المجاورة بين هذين اللفظين، بل إبراز أنهما كلاهما يتعاونان في إنتاج بعضهما وأنهما يفتحان الطريق أمام قضية ثنائية، كل فعل إنساني فهو فعل بيوثقافي (الأكل، الشرب، النوم، التفريغ، الارتباط بشخص آخر، الغناء، الرقص، التفكير أو التأويل)؛

كل فعل إنساني هو بنفس الوقت فعل بيولوجي كلية وفعل ثقافي كلية .
 لنبدأ بالنقطة الأولى : الإنسان كائن بيولوجي كلية . يجب ، قبل كل شيء ، أن نرى أن كل السمات الخاصة بالإنسان تنحدر من سمات خاصة بالحيوانات الأولى أو الثدييات ، وهي السمات التي تطورت تدريجياً وأصبحت سمات دائمة . وبالتالي فالإنسان حيوان أولي ممتاز *super primate* ، فالسمات التي كانت دورية أو مؤقتة لدى الحيوان الأولي - مثل الوقوف على رجلين ، واستعمال الأدوات وحتى بعض أشكال حب الاطلاع ، والذكاء والنوعي بالذات - قد أصبحت ثابتة لدى الإنسان . نفس الملاحظة في ميدان الوجدان : فالحيوان الثديي الصغير كائن مرتبط بأمه ، أي أنه كائن يوجد في الوسط الخارجي لكنه في حاجة إلى العودة إلى الوسط الداخلي ، وهذا الشكل البدائي للحالة الوجدانية هو الذي أصبح منبع الحب والحنان الإنساني . فمشاعر الود والتنافس التي نعثر عليها لدى الثدييات قد تطورت ، هي أيضاً ، مع تطور النوع البشري : لقد أصبح الإنسان قادراً على ممارسة الصداقة الحميمة كما على العداوة اللدودة تجاه نظيره .

كل ذلك لنذكر بأنه ليس هناك أية سمة خاصة بالإنسان لا نجد لها مصدراً بيولوجياً ، إننا نحمل معنا كل الإرث المنحدر من ماضيها الحيواني في لعينا ، وملذاتنا ، وحبنا ، وبحثنا (...) . فالإنسان يستكمل إذن ويطور حيوانيته ، لكن عبر طفرة ، لأنه خلق لنفسه دائرة جديدة ، أي الدائرة الاجتماعية والثقافية ، التي لا توجد ، طبعا ، في الحالة الحيوانية . بل سأذهب إلى حد القول بأن الأنشطة الروحية والفكرية والنفسية التي تتطور ضمن هذه الدائرة هي أيضاً أنشطة حية وحيوية ، فحياة الفكر أو الروح بالنسبة لي ليست مجرد تعبير مجازي . فأساطيرنا ومذاهبنا ليست بنيات فوقية خالصة ، بل هي أشياء حية ، فنحن نمثل المنظومة المحيطة بالنسبة لها ، وهي تتغذى منا . ومن منظور هذه العلية الدائرية الأساسية ، التي هي السمة المميزة للحياة ، فإن المجتمع ذاته يبدو بمثابة تنظيم حي . فالمجتمع يحيا ، وهو ليس فقط صورة لحياة الأفراد ، بل إن له نمط حياته الخاص ، كما أنه ليس آلة اصطلاحية محضا . (...)

يبقى أن نبرز ، الآن ، أن الإنسان كائن ثقافي كلية . يجب أن نتذكر أن كل فعل بشري هو فعل مكيف ثقافياً *cultirisé* : الأكل ، النوم ، وحتى الابتسام أو البكاء . إننا نعرف جيدا ، مثلا ، أن ابتسام الياباني تختلف عن شهقة الضحك عند الأمريكي . والشئ المشير للاستغراب هنا هو أن الأفعال الأكثر بيولوجية هي أيضا الأفعال الأكثر انصباغا بالثقافة : الميلاد ، الموت ، الزواج . فالأسرة مثلا هي بنفس الوقت نواة لاعادة الإنتاج البيولوجي للأفراد ومدونة ثقافية تتشكل فيها تربيته ، و"خلية" اجتماعية تشكل جزءا من مجموع أوسع . ولنذهب أبعد من ذلك فنقول بأن فكرة الطبيعة نفسها هي نتاج لثقافة متطورة قادرة على القيام بمثل هذا الفصل : (...)

ليس هناك إذن فكرة أكثر اجتماعية من فكرة الطبيعة نفسها ، أو من فكرة العودة إلى الطبيعة . فقد كانت هناك دوماً تصورات عن الطبيعة تنتمي إما إلى اليمين أو إلى اليسار من

الناحية السياسية لماركس مثلاً يضمن عالياً خصوبة فكرة الصراع لدى داروين في حين أن Kropotkin يلتقط فكرة الاصطفاء الطبيعي ليرز قيمة التعاون والتضامن. فالتصورات المختلفة عن الطبيعة تدخل ضمن لعبة الصراعات الاجتماعية، وهو ما يبين لنا أن الطبيعة لا تعطي للثقافة درساً واضحاً ووحيد المعنى، بل تقدم لها دوماً تعليمات معقدة.. فالطبيعة دوماً غير صافية Impure تماماً مثل الثقافة ذاتها.

E.Mouin, L'individualité de L'homme, in philosophe. Fayard 1980.

7.1. مفهوم الطبيعة في الإيستيمية الكلاسيكية ميشيل فوكو

« يجب الملاحظة أن أدوار « الطبيعة » و « الطبيعة البشرية » تتناقض بنبدأ بنبدأ في نظر الإيستيمية الكلاسيكية، من خلال تقريب الأشياء من بعضها بشكل واقعي عشوائي، تُبرز الطبيعة الفرق في سياق الكائنات المتواصل المنظم، أما الطبيعة البشرية، فإنها تقيم تماثلاً في سلسلة التمثيلات العشوائية من خلال بسط الصور. تفترض الواحدة تشويش تاريخ من أجل تشكيل مناظر فعلية، بينما تفترض الأخرى مقارنة عناصر غير فعلية تفكّ حبكة تسلسل زمني. بالرغم من هذا التناقض، أوبالأحرى من خلاله، نرى العلاقة الإيجابية ترتسم بين الطبيعة والطبيعة البشرية. فهما، في الواقع تعملان على عناصر متماثلة (الواحد، التواصل، الفرق الدقيق، التعاقب دون انقطاع) وتُبرزُ كلتاها على حبكة واحدة متواصلة إمكانية تحليل عام يسمح بتوزيع تماثلات ممكنة العزل، أو فروقات ظاهرة، في حيزٍ مجدول أو سلسلة منظمة. لكنهما لا تتوصلان إلى ذلك، الواحدة دون الأخرى، فيكون في ذلك السبيل لتواصلهما. وبالفعل، انطلاقاً من قدرتها على نسخ نفسها (في المخيلة والتذكر، وفي الانتباه، متعدد الأوجه الذي يقارن)، تستطيع سلسلة التمثيلات أن تهتدي، من خلال الفوضى الذي تعم الأرض، إلى طبقة الكائنات التي لا تصدع فيها؛ فالذاكرة، وبعد تيهان تبع أهواء التمثيلات كما تجي، فإنها تتركز شيئاً فشيئاً في جدول عام يضم كل الكائنات؛ ويتمكن الإنسان عندئذ من إدخال العالم في مملكة خطاب قادر على تمثيل تمثيله. ومن خلال فعل اللغة، أو بالأحرى (إذا ما أردنا الاقتراب أكثر من جوهر الخبرة الكلاسيكية) من خلال فعل التسمية، تحوّل الطبيعة الإنسانية، كشيء للتمثيل حول نفسه، سلسلة الأفكار الخطية إلى قائمة ثابتة لكائنات مختلفة جزئياً، إن الخطاب الذي تنسخ فيه تمثيلاتها وتُبرزها بربطها بالطبيعة. وعلى العكس من ذلك، ترتبط سلسلة الكائنات بالطبيعة البشرية من خلال لعبة الطبيعة؛ بما أن العالم الواقعي، كما يرى، من خلال النظرات ليس مجرد بسط لسلسلة الكائنات الأساسية، بل يعرض لأجزاء متداخلة فيها - مرددة ومتقطعة - فإنه ليس تسلسل التمثيلات في الذهن مجبراً على سلوك سبيل الفروقات الدقيقة

المواصل، فقلتم في الأضداد، وتتردد الأشياء ذاتها أكثر من مرة؛ فتتطابق الخطوط المتشابهة في الذاكرة، بينما تبرز الفروقات جلية واضحة. وهكذا تنطبق تلك الطبقة المتواصلة واللامتناهية بأحرف متميزة، ويخطوط على درجات متفاوتة في العمومية، وبعلامات فارقة. وبالتالي، تصبح سلسلة الكائنات خطاباً وترتبط هكذا بالطبيعة البشرية وبحلقة التمثيلات.

إن وضع الطبيعة والطبيعة البشرية في حال من التواصل انطلاقاً من دورين متناقضين إنما متكاملين، كونهما لا يقوم أحدهما دون الآخر، يترتب عليه نتائج نظرية واسعة. فلا يندرج الإنسان في إطار الطبيعة، في نظر الفكر الكلاسيكي، بفضل تلك «الطبيعة» الإقليمية، المحدودة والمميزة والآيلة إليه، مثل سائر المخلوقات، بمجرد وجوده. وإذا كانت الطبيعة البشرية تتداخل مع الطبيعة، فذلك عن طريق آلية المعرفة وعملها، أو بالأحرى، فإنه بالنسبة للمنطوق الكبير الذي تتضمنه الإبتيمية الكلاسيكية، تشكل الطبيعة والطبيعة الإنسانية وعلاقتها مع الحظوظ وظيفية محدّدة ومرتبطة. وليس للإنسان فيها، بصفته حقيقة كثيفة وأولية، وبصفته موضوعاً عسيراً وذاتاً سيّداً لكل معرفة ممكنة، أي مكان. إن الموضوعة الحديثة حول فرد حي ينطق ويعمل وفق قوانين الاقتصاد وفقه اللّغة والبيولوجيا، لكنه وقد حاز، بما يشبه الالتواء الداخلي والانعطاف، ويفضل دينامية تلك القوانين عينها، على حق معرفتها وكشفها كلياً، إن كل تلك الموضوعات المألوفة لدينا والمرتبطة بوجود «العلوم الإنسانية» كانت مستبعدة من الفكر الكلاسيكي؛ فلم يكن ممكناً في ذلك الوقت أن تنتصب على تخوم العالم قامة الكائن الغريبة هذه، والذي من طبيعته (تلك التي تحدّده وتسيطر عليه وتتخلله منذ سحيق الزمان) أن يعرف الطبيعة ويعرف نفسه بالتالي ككائن طبيعي.

وبالمقابل، في نقطة التلاقي بين التمثيل والكينونة، حيث تتقاطع الطبيعة والطبيعة البشرية - في ذلك المكان بالذات، حيث نظن اليوم أننا نكتشف الوجود الأولي والثابت واللّغزي للإنسان فإن ما كان قد أهرزه الفكر الكلاسيكي إنما هو سلطة الخطاب. أي اللّغة كأداة تمثيل - اللّغة التي تسمّى وتقطع وتؤلف، وتربط وتفكك الأشياء، مظهرة إياها في شفافية الكلمات. عندما تقوم اللّغة بدورها هذا تحوّل تتابع الأحاسيس إلى لوحة وتقطع بالمقابل استمرارية الكائنات إلى خصائص. فحيث يوجد خطاب، تنهسط التمثيلات وتتناضد، تتجمع الأشياء وتتمفصل. لطالما كانت دائماً نزعة اللّغة الكلاسيكية هي في رسم «لوحات»؛ إن بشكل خطاب طبيعي أو جمع حقائق، أو وصف الأشياء أو مدونة معارف علمية صحيحة، أو معجم موسوعي. فلا وجود لها إذا إلا لتكون شفافة؛ لقد خسرت تلك الكثافة الغامضة التي كانت تحوّلها، في القرن السادس عشر إلى كلام يجب حل رموزه، ويشبكها مع أشياء العالم، ولما تكتسب بعد ذلك الكيان المتعدّد الذي نتساءل حوله اليوم؛ كان الخطاب في العصر الكلاسيكي هو تلك الضرورة الشفافة التي يعبرُ من خلالها التمثيل والأشياء - عندما تغدو الكائنات متمثلة بالنسبة للذهن، وعندما يجعل التمثيل الأشياء تظهر على حقيقتها. بالنسبة للخبرة الكلاسيكية تمر معرفة

الأشياء عبر سيادة الكلمات، فليست الكلمات هذه في الواقع، لا علاقات يجب فك رموزها (كما كان الأمر في عصر النهضة)، ولا أدوات موثوقة وطبيعة إلى حد ما (كما في عصر الوضعية)، بل تشكل بالأحرى شبكة لا لون لها، والتي انطلاقاً منها تبين الكائنات، وتتنظم التمثيلات، هذا ما يفسر بلا شك واقعة أن التفكير الكلاسيكي حول اللغة، مع كونه ينخرط في منطوق عام يشمل أيضاً، وعلى حد سواء، دراسة الثروات والتاريخ الطبيعي، فإنه يلعب بالنسبة لهذين الأخيرين دوراً موجهاً.

لكن النتيجة الأهم، هي أن اللغة الكلاسيكية كخطاب مشترك للتمثيل وللأشياء، كمكان تتقاطع داخله الطبيعة مع الطبيعة البشرية، يستبعد بصورة قاطعة وجود شيء ما يسمى «علم الإنسان». طالما كانت هذه اللغة هي التي تتكلم في الثقافة الغربية، كان من المستحيل أن يطرح الوجود البشري بحد ذاته للمناقشة لأن ما كان يُحَبِّكُ فيها هو التمثيل والكيونة. إن الخطاب الذي ربط في القرن السابع عشر عبارة «أنا أفكر» إلى عبارة «أنا موجود» التي تفوه بهما صاحب الخطاب - بقي هذا النوع من الخطاب، بشكل ظاهر، جوهر اللغة الكلاسيكية ذاته. لأن ما كان يُحَبِّكُ فيه، عن ملء حق، هما التمثيل والكيونة. كان يتم العبور من «أنا أفكر» إلى «أنا موجود» على ضوء البداية، داخل خطاب كان كل مجاله وكل عمله هو أن يُفصل ما تتمثل وما هو موجود الواحد على الآخر. لا مجال إذاً للاعتراض على هذا الانتقال، بالقول إن الكيونة بوجه عام ليست محتواة في الفكر، أو إن ذلك الكائن المعين المشار إليه بواسطة «أنا موجود» لم يُدرس أو يحلل لذاته. أو بالأحرى يمكن أن تنبثق هذه الاعتراضات وتأخذ حقيقتها، إنما انطلاقاً من خطاب مختلف اختلافاً عميقاً، ولا يكون الرباط فيه بين التمثيل والكيونة مبرراً لوجوده، وحدها إشكالية قادرة على تجنّب التمثيل يمكنها أن تبدي مثل هذه الاعتراضات. ولكن ما دام الخطاب الكلاسيكي قائماً، فإنه لم يكن بالإمكان طرح أي تساؤل حول نمط الكيونة المتروك على الكوجيتو (أنا أفكر).

ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، الترجمة العربية، مركز الإنماء، بيروت، 1990، ص. 257-259.

8.1. من إنسان الطبيعة إلى إنسان الثقافة

تتفق نظريات التطور الثقافي على أن الإنسان - في بداية تاريخه - كان مرتبطاً بالطبيعة ارتباطاً حميمياً، وأنه بعد ذلك اضطر إلى الانفصال عنها تدريجياً. وشيئاً فشيئاً أخذ يظهر نوع من الخلاف العميق بين اتجاهين فيما يخص تقسيم بداية هذا التطور. فالأول وهو الأقدم يرى أن الإنسان كان سعيداً في الحالة الطبيعية وأنه كلما ابتعد عنها فقد بالتدريج هذه السعادة. أما الاتجاه الثاني فيؤكد عكس ذلك.

تعتبر الميتولوجيا القديمة العصر الأول بمثابة عصر الطبيعة الذي كان الانسان يعيش فيه في حالة من المرح بدون أي نشاط خلاق. في الأساطير البابلية يدعى هذا العصر بعصر ساتورن (saturne)، وفي الأساطير المصرية يسمى بعصر الشمس، ويلقب في الأساطير الإغريقية بالعصر الذهبي. أما الأساطير الهندية فتحدده في العصر الأول المؤسس عندما خلق براهما الف زوج من التوائم التي كانت رغباتها ملبأة في الحين، والتي كانت تعيش بدون كساء في ربيع أبدي واكتفاء فردوسي، مثلما هو الأمر في جنة عدن المذكورة في الكتب السماوية. وهذه الرؤى الأسطورية تنسب لهذا العصر الأول متعة فائقة في حضانة طبيعة رائعة. وبمفادرتة لها يفقد الإنسان سعادته بالتدريج. وأفلاطون يذكر هذا العصر الأول على أنه العصر الطبيعي الذي كان يسوده سلام مطلق بين الناس. وقد أعاد الفيلسوف سينيكا تناول هذه الفكرة التي حظيت فيما بعد - في القرن 16 - باستقبال ظافر حيث يصف جون لوك الحالة الطبيعية المثالية بأنها تتسم بـ «السلام والارادة الطيبة والتعاون والحماية المتبادلة». وقد قام روسو وديدرو بالدفاع عن هذا المذهب ودعيا إلى «العودة إلى الطبيعة»

وبجانب هذا الميل الأسطوري والتأملي لعب عنصر آخر دوراً هاماً في تطور التعارض بين الطبيعة والثقافة، وهو إضفاء الصبغة المثالية على الشعوب المتوحشة البعيدة. [...] فقد كان إضفاء الصبغة المثالية على الشعوب الجديدة التي تم اكتشافها في الأراضي البعيدة أداة لتكوين صورة فردوسية عن الطبيعة. وهكذا اقتحمت صورة «المتوحشين» النتاج الأدبي مرصعة بكل الصفات الطبيعية مثل صفاء النفس التي أسف المؤلفون لعدم وجودها لدى معاصريهم [...] ونجد سدى لهذه الآراء لدى مونتاني والمدرسة الفرنسية من الاخلاقيين الذين اتجموه في ذلك مثل لافونتين وفوفنارغ ثم لدى بعض الرومنسيين الانجليز (مثل Behen و Defoe)

أما الاتجاه الثاني المعاكس فقد حاول تخريب هذه الصورة المثالية. وقد لعب الفيلسوف هوبز دوراً رائداً في هذا الباب حيث وصف - بألوان داكنة - عالم إنسان الطبيعة على أنه عالم تخريب «حرب دائمة لكل الأفراد ضد كل الأفراد». في هذا العصر لا توجد لا صناعة، ولا نقل، ولا زراعة، ولا معمار، ولا فنون، ولا آداب. وحياتة الناس في هذا العصر حياة «منعزلة، فقيرة، شريرة، عنيفة وقصيرة». وقد تبني كمنط موقفاً مماثلاً، «إن حالة الطبيعة هي بالأحرى حالة الحرب، إذ أنه رغم أن انفجار الصراعات لم يكن دائماً، فإن تهديدها قائم ومستمر». وقد دعم المجلس (Engels) هذا التصور، بالاعتماد على عناصر اتنولوجية لاحظها موزعان لدى الاركوا (Iroquois)، وأكد أنه في فترة الهمجية هاته فإن «الحرب تسود من قبيلة إلى قبيلة، وتجري بالشراسة التي تميز البشر عن الحيوانات الأخرى، ولا تهدؤها إلا المصلحة» وفي نهاية القرن 19 مكن التراكم الهائل للعديد من الوثائق الاتنولوجية كارل بوشر (K.Bücher) من أن يخلص آخر المثاليين من أسطورة «المتوحشين الطبيعيين» (Les bons sauvages)، ومن أن يؤكد كم هؤلاء أنانيون وقساء تجاه صحتهم، وشرسون وذوور استعداد للسرقة، وكسلاء، وغير مهتمين بالمستقبل، كما

أشار إلى شرارتهم التي تتجلى بالخصوص في قتل الأطفال، واستئصال الشيوخ، وكل من هم خالون من النفع بالنسبة للقبيلة. وقد صدمت مثل هذه المعلومات القراء في تلك الفترة. وهكذا رأى الاتنولوجي في هذه الوقائع، أكثر مما رأى في الصورة التقوية الجميلة والمفشوشة، وجه إنسان الطبيعة الحقيقي على ضوء معطيات اجتماعية وثقافية ملموسة. إن عملية رفع وهم المثاليين عن الإنسان الطبيعي قد تم تدعيمها من طرف كنط وهردر. فهذان الفيلسوفان الألمانيان اللذان ينتميان لفترة عصر الانوار يضعان مشكل «طبيعة - ثقافة» في إطار مشكل الحرية الإنسانية. بالنسبة لكنط التعارض ليس فقط قائما بين «قساوة» الطبيعة و«فنون» الثقافة، بل قائم أيضا بين حتمية الطبيعة والحرية التي تمثلها الثقافة. ويؤكد هردر بدوره أن الحيوانات سجيئة الطبيعة، وأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي تحرر منها. فالإنسان خلال تاريخه يتطلق من الطبيعة ويتقدم على طريق الثقافة نحو الحرية كما يقول هردر، وسيطور هيجل فيما بعد هذه الفكرة واصفا الحالة الأولية التي كان عليها الإنسان بأنها حالة «اللاحرية»، وواصفا التطور الثقافي بأنه «تقدم في الوعي بالحرية»

وتحرير الطبيعة، كميل يسود تاريخ الثقافة، هو مبدأ صريح أو مظهر نعثر عليه في معظم النظريات ذات النزعة التطورية. فهيجل يعتبر عملية الأسننة بمثابة الخروج من العالم الحيواني، تماما مثلما يتحدث كنط عن الخروج من الطبيعة نحو الثقافة، ومثلما يصف فروينبوس (Frobenius) المرحلة الغائية والنهائية للتطور الثقافي بأنها سيطرة الإنسان على الطبيعة. ولدى مورغان وشراحه من الماركسيين فإن هذه الفكرة تلعب دور خيط ناظم. فإجلس مثلا يتحدث عن «الهمجية» باعتبارها الفترة التي تتميز «بعبودية الإنسان التامة تقريبا تجاه الطبيعة الخارجية». وابتداء من هذه المرحلة ستقود الفترات المختلفة اللاحقة الإنسان تدريجيا نحو الحرية التامة المتوصل إليها في المجتمع اليوتوبي العادل.

في الاتنولوجيا المعاصرة ينبري ليفي ستروس لطرح المشكل بنوع من الوضوح أكثر من غيره محاولاً تحديد الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة في أنظمة الزواج وفي البنيات الأسطورية وفي الفكر. فهو يبرز أن العامل البيولوجي منعدم تقريبا في القواعد المميزة لأنماط الأسرة حتى في بعض الحالات مثل تحريم الزواج بالأقارب. لقد غادر الإنسان إذن منطقة تأثير الطبيعة حتى في المؤسسات المكلفة بإعادة إنتاج النوع البشري التي ظن لمدة طويلة أنها واقعة تحت تأثير الطبيعة.

أما الاتنولوجيون الأمريكيون فيفسرون مسألة الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة بواسطة مفهوم التطور من العضوي إلى العضوي الأعلى. وهذا المفهوم الذي اقترحه الفيلسوف الإنجليزي سبنسر (Spencer) قد التقطه واستعمله فيما بعد الأمريكي كروبر (Kroeber) الذي جعل منه حجر الزاوية في نظريته عن الثقافة. وقد تلاحق أنصار هذا الموقف (Kroeber, Lowie, Murdock, White) وخصوصهم (Sapir, Goldenweiser, Spiro, Bidney) مع وجهات نظر يختلف بعضها عن البعض الآخر.

2. تمفصل الطبيعة والثقافة

1.2. في الحال المدنيّة

جان جاك روسو

هذا الانتقال من حال الطبيعة إلى الحال المدنيّة أوجد في الانسان تبديلاً ملحوظاً، إذ أحلّ، في سلوكه، العدل محلّ الوهم الفطريّ، وأكسب فعّاله أدباً كان يموزه من قبل. عند ذاك فقط، إذ حلّ صوت الواجب محلّ الباعث المحرّك الجسمانيّ والحقّ محلّ الشهية. اضطرّ الانسان، الذي ما كان إلى ذلك اليوم ينظر إلّا إلى نفسه، اضطرّ أن يسير على مبادئ أخرى وأن يستشير عقله قبل أن يصغي إلى ميوله. إنه وإن يكن قد حرّم، في هذه الحال، مزايا كثيرة استمدّها من الطبيعة، فلقد اكتسب بدلاً منها مزايا أخرى كبيرة، لقد المجّلت قواه العقلية وثمت، واتسعت أفكاره، ونبلت عواطفه، وسمت نفسه كلّها حتى إنه كان يجب عليه - لولا أنه تجاوز الحدّ وأسرف في هذه الحياة الجديدة، مما جعله أحطّ منزلة منه في الحياة التي خرج منها - كان يجب عليه أن يبارك، بلا انقطاع، الساعة السعيدة التي انتزعت منه تلك الحياة إلى الأبد، والتي جعلت منه كائناً ذكياً ورجلاً، بعد أن كان حيواناً بليداً محدود الفهم.

وقصارى القول، في تعبير تسهل به الموازنة بين ما يفقده وما يجنيه من ربح، إن ما يفقده الانسان، بالمقد الاجتماعيّ، هو حرّيته الطبيعيّة، والحقّ غير المحدود الذي كان له على كل ما يستهويه ويجنيه ويمكنه الوصول إليه، وأمّا ما يكسبه فالحرّية المدنيّة وملكيّة جميع ما يقتنيه، واجتناباً لوقوع الخطأ في هذه المقامات يجب الحرص على التمييز بين الحرّية الطبيعيّة، التي لا حدود لها إلّا قوى الفرد، والحرّية المدنيّة التي تحدّها الإرادة العامّة، والتمييز بين وضع اليد والاستيلاء، الذي ليس إلّا نتيجة القوّة أو حقّ المستولي الأول، والتّمليك والملكيّة التي لا تقوم إلّا على سند عمليّ إيجابيّ.

ويمكننا أن نضيف، إلى مقتنى الحال المدنيّة، الحرّية المعنوية التي، هي وحدها، تجعل الرجل سيّد نفسه، لأنّ الباعث المندفع من الشهية وحدها هو «عبوديّة»، والطاعة للقانون الذي فرضناه على أنفسنا هي «حرية»، ولكنتي قد تحدّثت طويلاً عن هذه المادّة، والمعنى الفلسفيّ لكلمة

« حرية » ليس هنا موضوع البحث فيه.

جان جاك روسو العنق، الاجتماعي، ترجمة بولس غانم، بيروت، 1972، من ص 31-32.

2.2. الرغبة الانسانية والرغبة الحيوانية الكسندر كوجيف

الانسان وعي بالذات. إنه واع بذاته، واع بحقيقته وكرامته الإنسانية. وبهذا فهو يختلف جوهريا عن الحيوان، الذي لا يتجاوز مستوى "الاحساس" البسيط بذاته [...] ولكي يحصل الوعي بالذات فإن على الرغبة أن تتعلق بموضوع غير طبيعي، بشيء يتجاوز الواقع المعطى. بيد أن الشيء الوحيد الذي يتجاوز هذا الواقع المعطى هو الرغبة ذاتها، لأن الرغبة بما هي كذلك، أي قبل إشباعها، ليست في الحقيقة إلا عدما ظاهرا وفراغا لا واقع له. إن الرغبة التي تظهر على شكل فراغ، والتي تبرز غياب واقع ما، هي بالأساس شيء آخر غير الشيء المرغوب فيه، شيء مغاير للشيء، مغاير للكائن الواقعي الثابت والمعطى الذي يظل بصفة أبدية مطابقا لذاته.

إن الرغبة التي تتعلق برغبة أخرى بما هي رغبة، تخلق إذن وعن طريق الفعل السلبي والتمثلي الذي يقوم بإشباعها، «أنا» مغايرا بصفة جوهرية «للأنا» الحيواني. هذا «الأنا» الذي «يتفدى» على الرغبات، سيكون هو نفسه في أصل وجوده، رغبة يخلقها إشباع رغبته. وبما أن الرغبة تتحقق بفعل العمل السالب للمعطى، فإن وجود هذا «الأنا» ذاته يسير عملا. وهذا «الأنا» لن يكون «كالأنا» الحيواني مطابقا أو مساويا لذاته، بل «نفيا سالبا» [...].

على الرغبة الإنسانية أن تتعلق برغبة أخرى، وحتى تكون هناك رغبة إنسانية يجب أن يكون هنالك أولا وبالذات تعدد للرغبات (الحيوانية). وبعبارة أخرى، حتى يمكن للوعي بالذات أن ينشأ عن الإحساس بالذات، وحتى يتسنى للحقيقة الإنسانية أن تتشكل داخل الحقيقة الحيوانية، فإنه يجب أن تكون هذه الأخيرة أساسا متعددة، فالإنسان لا يمكنه أن يظهر إذن على وجه الأرض إلا داخل «قطيع» ولذلك فإن الحقيقة لا يمكن أن تكون إلا اجتماعية. ولكن تعدد الرغبات وحده لا يكفي ليصير هذا القطيع مجتمعا. بل ينبغي أن تتعلق رغبات كل فرد فيه - أو على الأقل أن تكون قادرة على أن تتعلق - برغبات بقية الأفراد. وإذا كانت الحقيقة الإنسانية حقيقة اجتماعية، فإن المجتمع ليس إنسانا إلا بما هو مجموعة رغبات يرغب بعضها في البعض الآخر بصفة متبادلة وبما هي رغبات.

إن الرغبة الإنسانية المولدة للإنسان والمكونة لفرد حر وتاريخي وواع بفرديته وحرية وتاريخه، وفي الأخير بتاريخيته، تختلف إذن عن الرغبة الحيوانية (المكونة لكائن طبيعي يحيا فحسب ولا يملك سوى الإحساس بحياته) باعتبارها تتعلق برغبة أخرى وليس بموضوع واقعي

و«إيجابي» ومعطى [...]»

وحتى يكون الانسان حقيقة إنسانية، ولكي يتميز جوهريا وواقميا عن الحيوان فإنه ينبغي أن تقضى رغبته الانسانية فعليا على رغبته الحيوانية. بيد أن كل رغبة هي رغبة في قيمة ما. فالقيمة العليا للحيوان هي حياته الحيوانية. وكل رغبته في آخر التحليل هي حسيلة رغبته في البقاء. وبعبارة أخرى فالإنسان لا «يؤكد» إنسانيته إلا إذا خاطر بحياته (الحيوانية) في سبيل رغبته الإنسانية. إنه من خلال هذه المخاطرة وبواسطتها تتأكد أي تنكشف وتبين ويتم اختبارها وتثبت أدلتها بما هي مختلفة جوهريا عن الحقيقة الحيوانية الطبيعية [...]»

الكسندر كوجيف، مقدمة لقراءة هيجل، غاليمار، 1947، ترجمة عز الدين عبد المولى.

3.2. الأنتروبولوجيا الطبيعية

كلود ليفي ستروس

لنتأمل حالة الأنتروبولوجيا الطبيعية، إنها تهتم بمسائل مثل تطور الإنسان بدءاً من أشكال حيوانية، وتوزعه الحالي في جماعات عرقية، متميزة بصفات تشريحية أو فسيولوجية. فهل يمكن لهذا السبب تعريفها كدراسة طبيعية للإنسان؟ بذلك ننسى أن مراحل تطور الإنسان الأخيرة - على الأقل - أي التي ميزت أجناس الإنسان بوصفه نوعاً بيولوجياً وربما حتى المراحل التي قادت إليه - جرت في ظروف شديدة الاختلاف عن تلك التي حددت تطور الأنواع الحية الأخرى منذ أن اكتسب الإنسان اللسان حدد بنفسه طرق تطوره البيولوجي، بدون أن يدرك ذلك بالضرورة. إن كل مجتمع بشري، في الواقع، يعدل شروط استمراره الفيزيائي بمجموعة معقدة من القواعد، مثل تحريم سفاح المحارم والزواج الداخلي والزواج الخارجي والزواج التفضيلي بين بعض أنماط الأقرباء وتعدد الزوجات والزواج الأحادي، أو فقط بتطبيق منهجي تقريباً لعدد من المعايير الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والجمالية. إن المجتمع، إذ يشمل بعض القواعد، يشجع بعض أنماط الاتحادات ويستبعد بعضها الآخر. فالأنتروبولوجي الذي يحاول تفسير تطور العروق أو فروعها كما لو كان هذا التطور نتيجة شروط طبيعية فقط، يفضي به الأمر إلى الطريق المسدود نفسه الذي يقع فيه العالم بالحيوان، الذي يود تفسير المفاضلة الحالية للكلاب باعتبارها بيولوجية أو بيئية بحتة، دون أخذ التدخل البشري بعين الاعتبار، إذ لا ريب في وصوله إلى فرضيات خيالية تماماً أو، على الأرجح، إلى القوضى. وعليه فإن الناس لم يصنعوا أنفسهم أقل مما صنعوا حيواناتهم الأهلية، مع فرق واحد هو أن التطور أقل وعياً وإرادة من الحالة الأولى منه فالحالة الثانية. ومن ثم فالأنتروبولوجيا الطبيعية نفسها - على الرغم من أنها تلجأ إلى معارف ومناهج متفرعة من العلوم الطبيعية - وتؤول، إلى حد كبير، إلى دراسة التحولات التشريحية والفيزيولوجية الناجمة بما يتعلق بنوع حي معين، عن ظهور الحياة الاجتماعية واللسان ومنظومة

قيم أو، بكلام أصح، ظهور الثقافة.

كلود ليفي ستروس، الاثنولوجيا البنيوية، ترجمة مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1977، ص. 405-406.

4.2. ليفي ستروس: اختزال الثقافة إلى الطبيعة لبيانسكي

إن مشكل الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة لم يفتأ يشغل اهتمام ليفي ستروس الذي يتساءل حوله بصدد منظومات القرابة والفكر الوحشي والفكر الأسطوري. فقد كان يعتقد في البداية أنه يستطيع تفسيره من خلال تحريم زنى المحارم وقانون التبادل. ولكن بعد ذلك داهم الالتباس والغموض المسألة عندما تبدي له أن الفكر الوحشي يعمل من خلال مبادئ ومسارات لا تختلف اختلافا أساسيا عن مبادئ ومسارات الفكر العلمي وهكذا اتجه بعد ذلك نحو الأساطير ونذر نفسه لدراستها وتأويلها، مشبها الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة بالانتقال من «النبي» إلى «المطبوخ»، ومن العري إلى التبادلات التجارية.

كان ليفي ستروس في «البنيات الأولية للقرابة» قد بدأ بإقامة تعارض بين الطبيعة والثقافة، راسما «الخط الفاصل بين النظامين مهتديا بحضور أو غياب اللغة المنطوقة». لكن بعد أن اكتشف وجود عمليات تواصل معقدة، مستخدمة في بعض الأحيان رموزاً حقيقية، لدى الحشرات والأسماك والطيور، والثدييات، وجد نفسه متقاداً إلى «التساؤل عن الجدوى الحقيقية لتعارض الثقافة مع الطبيعة»، وإلى تقديم فرضية «أن هذا التعارض ليس لا معطى أولياً، ولا مظهراً موضوعياً لنظام العالم» بل هو إبداع من صنع الثقافة، وعمل دفاعي حفرته الثقافة في دائرتها لأنها لم تكن تحس بأنها قادرة على تأكيد وجودها وأصالتها إلا بقطع كل الانتقالات والممرات التي تشهد على توأمتها الأصلي مع التجليات الأخرى للحياة. وفي سنة 1967 ختم تقديمه للطبيعة الثانية من «البنيات الأولية للقرابة» بالاعتبارات التالية: «ربما سنكتشف أن تفصل الطبيعة والثقافة لا يكتسي المظهر القسدي لسيادة ثرائية وتدرجية بحيث لا يمكن إرجاع أي مستوى منها إلى الآخر، بل بالأحرى يكتسي صبغة تناول تركيبي، يسمح به ظهور بعض البنيات الدماغية التي تنتمي هي ذاتها إلى الطبيعة، وظهور آليات متراكبة مسبقاً لكن الحياة الحيوانية لا تبرزها إلا بشكل منفصل ولا تقدمها إلا عبر نظام مشتت.

في الدرس الافتتاحي كان ستروس قد توصل إلى معالجة هذا المشكل من خلال مشابهة بالتدرج، «حتى ولو كان على الظواهر الاجتماعية أن تكون منعزلة مؤقتاً عن الباقي، ومعالجة كما لو كانت تتعلق بمستوى خصوصي، فنحن نعرف جيداً أنه واقعا وإمكاناً فإن انبثاق الثقافة سيظل لغزاً بالنسبة للإنسان، ما لم نتوصل إلى تحديد المستوى البيولوجي الذي حدثت فيه

تحولات في بنية وأدائية الدماغ، والذي كانت الثقافة بنفس الوقت نتاجه الطبيعي وقمطه الاجتماعي في الإدراك، يخلق الوسط القائم بين الذوات والضروري لحدوث تحولات تشريحية، ولكن التي لا يمكن لا تحديدها ولا دراستها من خلال الرجوع إلى الفرد فقط»

Lipiansky, Le structuralisme de stauss Payst 1973, p. 253-236.

5.2. التَّحْرِيمُ الجِنْسِي لِلِأَقَارِبِ نُقْطَةُ تَمْفُصْلِ الطَّبِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ

كلود ليفي سترُوس

لنفترض أن كل ما هو كوني وشمولي، لدى الانسان، ينتمي إلى مستوى الطبيعة، ويتميز بالتلقائية، وأن كل ما هو خاضع لقاعدة ينتمي إلى الثقافة ويمثل ما هو نسبي وخصوصي. عندئذ نجد أنفسنا بمواجهة واقعة، أو بالأحرى مجموعة وقائع، تبدو بمثابة مفارقة كبرى، بمعنى هذا المجموع المعقد من المعتقدات، والعادات، والمواضعات، والمؤسسات الذي ندعوه عادة: التحريم الجنسي للأقارب، إذ أن هذا التحريم يشكل - دون أدنى شك - النقطة التي تتلاقى فيها الصفات المتناقضة لكلا المستويين المذكورين، فهو يشكل قاعدة، لكنها قاعدة تختص بكونها، من بين كل القواعد الاجتماعية، القاعدة التي تمتلك كذلك صفة الكونية الشمولية. أن يشكل تحريم زنى الأقارب قاعدة اجتماعية فهذا أمر لا يحتاج إلى برهنة، إذ يكفي أن نذكر أن تحريم الزواج بين الأقارب يمكن أن يُطبق تطبيقاً متنوعاً حسب الكيفية التي تود بها كل جماعة أن تحدد ماذا تقصد بالأقارب، لكن هذا التحريم - الذي يعاقب عليه بعقوبات متغيرة، ويمكن أن تمتد من الإعدام المباشر للمدانين إلى الإذانة، أو إلى التهكم أحياناً فقط - هو تحريم موجود في أي تجمع اجتماعي.

سترُوس، البنيات الأولية للقرابة، 1971، ص 10.

6.2. اللُّغَةُ هِيَ الخَطُّ الفَاصِلُ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ

كلود ليفي سترُوس

لقد تصورنا لمدة طويلة، كما تصور الكثير من الأنثروبولوجيين، أن العلامة المميزة للثقافة هي الأشياء المصنوعة. فقد عرف الإنسان بأنه «الإنسان الصانع»، أي صانع الأدوات، معتبرين هذه السمة هي العلامة الخاصة بالثقافة. واعترف بأنني لست متفقاً مع هذا الرأي، وبأن أحد أهدافي كان دائماً هو أن أضع الخط الفاصل بين الثقافة والطبيعة لا في صناعة الأدوات، بل

في اللغة المنطوقة. وكيان الثقافة يقوم في هذا. فلنفترض أننا التقينا في كوكب مجهول بكائنات حية تصنع أدوات، فإننا لن نكون على يقين كافٍ من أنها تنتمي إلى المستوى الإنساني. وفي الواقع فإننا نصادف نموذجاً منها على كرتنا الأرضية، لأن بعض الحيوانات قادرة، إلى حد ما، على صنع أدوات أو محاولات أولية لصنع أدوات. ومع ذلك فإننا لا نعتقد أنها قد أنجزت الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة. لكن لتخيل أننا صادفنا كائنات حية تمتلك لغة مختلفة عن لغتنا بقدر ما، لكنها لغة قابلة للترجمة إلى لغتنا، إنها إذن كائنات نستطيع التواصل معها. [...]

إن اللغة تبدو لي بمثابة الواقعة الثقافية المتميزة، وذلك على عدة أشكال.

أولاً لأن اللغة جزء من الثقافة، فهي إحدى الاستعدادات التي تلقاها من التراث المحيط

بنا.

وثانياً لأن اللغة هي الأداة الأساسية، والوسيلة الممتازة التي نتمثل بواسطتها ثقافة المجموعة التي تنتمي إليها.. فالطفل يتعلم ثقافته لأننا نتحدث إليه، نوبخه أو ننصحه، وكل ذلك بالكلمات.

وثالثاً وعلى وجه الخصوص لأن اللغة هي أكثر مظاهر النظام الحضاري اكتمالاً، هذه المظاهر التي تشكل بصورة أو بأخرى، أنساقاً. فإذا أردنا أن نفهم ما هو الفن، أو الدين، أو القانون، بل وربما المطبخ أو قواعد اللياقة، فإنه يتعين علينا أن نتصورها كتقواعد تتشكل عبر تفصل العلامات، على نموذج التواصل اللساني.

C.L. Strauss, Entretiens avec Charbonnier, Collection 10-18, 1961, p. 182-184.

7.2. الإنسان : رحلة من الطبيعة إلى الثقافة - صادق جلال العظم

الإنسان أعلى الرئيسات، خرج من سيرورة نشوء الحياة على سطح الأرض وتطور أنواعها بقامة تميل إلى الانتصاب الكامل Homo Erectus وبتماغ حجمه كبير جداً وجهاز عصبي مركزي عالي التعميد قادر على توجيه اليد وضبط حركاتها ضبطاً محكماً مما شكّل تحولاً نوعياً حقيقياً وجديداً، لم يسبق له مثيل، في تاريخ تطور الأنواع الحية. هذا التطور العالي جداً للجملة العصبية، بالقياس إلى الأنواع الحية القريبة من الإنسان، رافقه انحسار كامل لأنماط السلوك الغريزية المبرمجة وراثياً وبيولوجياً بصورة مسبقة لصالح محركات جديدة مثل الحاجة والميل والنزوع والدافع ولصالح هيمنة آليات مثل التعلم وإمكانية نقل ما تمّ تعلمه من جيل إلى جيل، يبق مغايرة كلية لطريق النقل الوراثي - البيولوجي المسيطرة سيطرة شبه كلية في باقي مملكة ان. وبهذا المعنى الإنسان هو القرد العاري حقاً، أي العاري من محددات السلوك المبرمجة

بيولوجياً والفرايز الموروثية نوعاً والمحركات الجاهزة فيزيولوجياً والتي تتمتع بها كلها باقي أجزاء مملكة الحيوان بصورة طبيعية وآلية وإن كان بدرجات متفاوتة من الدقة والسيطرة والتوجيه. بالمقارنة مع باقي أنواع المملكة التي ينتمي إليها يبدو الإنسان أكثر الحيوانات ضعفاً وعجزاً وأكثرها حاجة لغيره وأعظمها اعتماداً على أفراد جنسه. في الواقع إنه الكائن الحي «المحتاج» بامتياز. بهذا المعنى أيضاً الإنسان نقلة نوعية حقيقية وجديدة في تاريخ نشوء الأنواع وتطورها، إنه في وقت واحد من صنع الطبيعة وإنتاجها من جهة أولى، ومنفصل عنها ومنقطع عن آلياتها المعروفة من جهة ثانية. بطبيعة الحال حملت هذه النقلة النوعية خصائصها الفذة وقوامها الكامنة الفريدة وطاقتها وميولها المتميزة في أسلوب تفتحها وأنماط تحققها التدريجي وتطورها الطبيعي والتاريخي اللاحق. في الواقع دخل الإنسان عنصراً حاسماً وفاعلاً جديداً في عملية تطور الحياة العضوية التي أنتجت أصلاً وفي تحديد شكل حاضرها ومستقبلها بحمله غمطاً جديداً من التدخل السببي المؤثر في الطبيعة والحياة العضوية معاً. في رأبي هذه هي القاعدة المادية البيولوجية لمقدرة الإنسان على التفاعل بطريقة جديدة تماماً مع بيئته الطبيعية ومن ثم الاجتماعية. أي أنها القاعدة المادية - الحيوية لمقدرة الإنسان على الفعل التحويلي الهادف في الطبيعة. إنها كذلك القاعدة المادية الأولى لنشوء كل ما هو إنساني بامتياز ونموه وتطوره، الحياة الاجتماعية، التاريخ، الثقافة، الحضارة، الأيديولوجيا، العلم، الوعي، وليس الوعي بمعنى وعي العالم وأشباهه فحسب، بل أيضاً بمعنى وعي وجود هذا الوعي للعالم أو غيابيه.»

صادق جلال المظلم، ثلاث محاورات فلسفية، بيروت، 1991، ص. 105 - 106.

8.2. مِنَ التَّوْحُشِّ إِلَى التَّحَضُّرِ

وَلِ دِيُورَانْتِ

وإذا نظرنا إلى التاريخ نظرة شاملة رأينا أنه يشبه خطأ بيانياً يسجل ارتفاع الدول وسقوطها - شعوب وثقافات تختفي وكأنها في فيلم هائل. ومع ذلك تبرز في تلك الحركة غير المنتظمة للممالك، وتلك الفوضى في البشر، بعض الحركات الكبرى تشمل ذروة تاريخ البشرية وجوهره، وهي بعض أنواع من التقدم لا نفقدها متى بلغناها. لقد تدرج الإنسان خطوة خطوة من متوحش إلى عالم. وهذه هي مراحل النمو،

الأولى، الكلام، تأمل الكلام لا على أنه عمل ظهر بعتة، ولا على أنه هبة من الآلهة، بل على أنه نمو بطيء للتعبير المنطوق خلال قرون من الجهد ابتداء من نداء الحيوان للتسافد إلى أغاني الشعراء. ولولا الألفاظ، أو الأسماء العامة التي تجعل الصور الخاصة قادرة على تمثيل النوع، لتوقف التعميم في بدايته، ولبقي العقل حيث لجده في الوحوش. لولا الألفاظ لاستحالت نشأة الفلسفة والشعر، والتاريخ والنثر، وما بلغ الفكر ما بلغته براعة أينشتين أو أناتول فرانس. لولا

الألغاز ما أصبح الرجل رجلاً أو المرأة امرأة.

الثانية، النار، لأن النار جعلت الإنسان لا يعتمد على المناخ، وهيأت له محيطاً أوسع على الأرض، وجعلت الآلات التي يستعملها صلبة ومتينة، ووهبت من الأطعمة آلافاً من الأشياء. لم تكن تؤكل من قبل. ولا يقل عما ذكرناه أهمية أن النار جعلت الإنسان سيد الليل، وأضفت على ساعات المساء والفجر حياة وبهاء. تصور حال الظلام قبل أن يبده الإنسان... حتى الآن لا تزال مخاوف تلك الهوة البدائية تعيش في تقاليدنا، ولعلها تسري في دماغنا. فعند كل غسق كانت تبرز مأساة، فيزحف الإنسان إلى كهفه عند غروب الشمس وهو يرتعد خوفاً، أما الآن فنحن لا نزحف إلى كهوفنا إلا عند مطلع الشمس. ومع أنه من حماقة أن تتجاهل الشمس، إلا أنه من الخير أن تتحرر من مخاوفنا القديمة. فهذا الليل قد رشقته يد الإنسان بملايين من الأنجم الصناعية فأضاءت النفس البشرية وأضفت على الحياة الحديثة المرح والخفة. الحق لن نستطيع توفية الضوء حقه من الشكر.

الثالثة، الانتصار على الحيوانات، إن ذاكرتنا عظيمة والنسيان وخيالنا شديد العجز، مما لا يسمح لنا بتحقيق النعمة الحاصلة لنا من الأمن من الوحوش المفترسة الضخمة القريبة الشبه من الإنسان. أما الحيوانات الآن فإنها ألعوبة في أيدينا، وهي طعامنا الذي لا مهرب لها منه. وقد أتى على الإنسان حين من الدهر كان يصاد كما يصيد، وكانت كل خطوة يبتعد فيها عن الكهف أو الكوخ مغامرة، وكان سلطانه على الأرض لا يزال محفوظاً بالمكاره. فهذه الحرب التي أحالت الكوكب إنسانياً هي ولا نزاع أكثر الأمور أهمية في تاريخ الإنسانية، وليست سائر الحروب الأخرى إلى جانبها إلا مشاجرات عائلية لا تفضي إلى شيء. وقد استمر ذلك الكفاح بين قوة البدن وسلطان العقل خلال سنتين طويلة لا تعيها الذاكرة. حتى إذا انتصر الإنسان أخيراً في تلك الحرب، انتقلت ثمرة انتصاره، نعني أمنه على الأرض، عبر آلاف من الأجيال، مع هدايا أخرى كثيرة يقدمها لنا الماضي لتكون جزءاً من ميراثنا عند الميلاد. فما قيمة جميع انتكاساتنا المؤقتة ضد مثل هذا الصراع وهذا الظفر؟

الرابعة، الزراعة، لم تكن الحضارة ميسورة في مرحلة الصيد، لأنها كانت تستدعي سكاناً دائمين وأسلوباً مستقراً في الحياة. وقد نشأت الحضارة مع نشأة البيت والمدرسة، ولم يظهر بيت ولم تقم مدرسة إلا حين حلت محاصيل الحقل محل حيوانات الغابة أو القطيع طعاماً للإنسان. فقد كان الصياد يقتنص ما يصيده بمشقة عظيمة، على حين كانت المرأة التي يتركها في الدار تستغل أرضاً أعظم ثمرة، وقد هدد اشتغال الزوجة الصابرة على الفلاحة باستقلالها عن الزوج، فأثر من أجل سيادته آخر الأمر أن يرغم نفسه على أعمال الزراعة. ولا ريب أن هذا الانتقال العظيم الذي يعد أعظم انتقال في تاريخ البشرية قد استغرق قروناً طويلة، حتى إذا تم في نهاية الأمر بدأت الحضارة. وقد قال مريدث Meredith إن المرأة هي آخر مخلوق يحضره الرجل، وفي هذا القول من الخطأ ما يوجد عادة في الأمثال السائرة، لأن الحضارة نشأت عن طريق أمرين

أساسيين، البيت الذي طوّرت تلك الاستعدادات الاجتماعية التي تكوّن الملائم النفساني للمجتمع، والزراعة التي أخذت بيد الإنسان من جولاته التي كان يهيم فيها صائداً وراعياً وقاتلاً وجعلته يستقر في مكان واحد فترة تبلغ من الطول ما يسمح له ببناء البيوت، والمدارس، والكنائس، والكليات، والجامعات، والحضارة. ولكن المرأة هي التي وهبت الرجل الزراعة والبيت، فأستأنست الرجل كما استأنست الماشية والخنزير، فالرجل هو آخر حيوانات المرأة التي استأنستها. ولعله آخر الكائنات التي ستحضرها المرأة. وبعد فالمهمة لم تكد تبدأ، وتكفي نظرة واحدة إلى قائمة الطعام لتكشف لنا أننا لا نزال في مرحلة الصيد.

الخامسة، التنظيم الاجتماعي، ها هنا رجلان يتنازعان، أحدهما يطرح الآخر أرضاً ويقتله، ثم يقول، إن الحي لا يد أنه كان في جانب الحق، وإن الميت كان في جانب الباطل... وهذا ضرب من البرهان لا يزال مقبولاً في المنازعات الدولية. وما هنا رجلان يتنازعان، فيقول أحدهما لصاحبه، «فلنترك القتال.. فقد نصرع معاً. ولكن دعنا نحمل خلافنا إلى كبير القوم، ولنقبل حكمه». لقد كان هذا التفكير لحظة حاسمة في تاريخ الإنسانية. فلو أن الجواب كان «لا»، لاستمرت البربرية، أما إذا كان الجواب «نعم»، فقد شقت الحضارة لها طريقاً آخر في ضمير الإنسان، هو إحلال النظام محل الفوضى، والقضاء العادل مكان الوحشية، والقانون بدلاً من العنف والإكراه. وهذه أيضاً منحة لا نشعر بها لأننا ولدنا في حماية دائرتها السحرية، دون أن نعرف أبداً قيمتها حتى نهيم في أقطار الأرض المنعزلة أو التي تسودها الفوضى. والله يعلم أن مؤتمراتنا وبرلماناتنا هي اختراعات مريبة. وهي خلاصة التوسط في البلاد، ولكننا نحاول على الرغم منها أن نتم في الحياة والمك بأمن سنقدره حق قدره حين تنشب حرب أهلية أو ثورة فتدنا إلى الظروف البدائية. وازن بين السفر المأمون اليوم وبين الطرق التي كان يقطعها اللصوص في العصر الوسيط بأوروبا. فلم يسبق في أي وقت من التاريخ أن ساد مثل هذا النظام وهذه الحرية مما نجد اليوم بالجلتري... وقد يوجدان ذات يوم بأمريكا، عندما يتسير إيجاد طريقة لافتتاح مكاتب البلدية تشغل بالكفاءة والمحترمين. ومع ذلك فلا يجب أن ننزعج كثيراً من الفساد السياسي أو سوء الإدارة في الديمقراطية. فالسياسة ليست الحياة، بل تطعماً لها، إذ يقوم وراء تمثيلاتها السوقية ذلك النظام التقليدي للمجتمع في الأسرة، والمدرسة، وفي هذه الآلاف من التأثيرات المنحرفة التي تحيل ما عندنا من فوضى وطنية إلى شيء من التعاون والخير. ونحن نشارك بغير وعي منا في تراث مجيد من النظام الاجتماعي شيدته لنا مئات من الأجيال أنفقت في التجارب وتجنب الأخطاء، وجمع المعرفة، ونقل الثروة.

السادسة، الأخلاق، وهنا ننفذ إلى قلب مشكلتنا - هل الناس أفضل في أخلاقهم مما كانوا؟ إذا اعتبرنا العقل عنسراً من عناصر الأخلاق فقد تقدمنا، ذلك أن مستوى الذكاء أعلى. وقد ازداد عدد ما يمكن أن نسميه بالعقول الراجعة زيادة كبيرة. أما فيما يختص بالخلق فأكبر الظن أننا تأخرنا، إذ نمت براعة التفكير على حساب هدوء النفس. ونحن المفكرين نحس في

حضرة آباتنا إحساساً مضطرباً أننا على الرغم من امتيازنا عليهم في كمية الأفكار التي نرحم بها رؤوسنا، وعلى الرغم من تحررنا من الأوهام اللذيذة التي لا تزال تجلب لهم العون والراحة فنحن أقل منهم في الشجاعة الثابتة، وفي الإخلاص للعمل والأهداف، وفي بساطة قوة الشخصية. أما إذا كانت الأخلاق تنطوي على الفضائل التي مجدتها شريعة المسيح، فقد تقدمنا محدوداً على الرغم من معيشة الناس عندنا في المناجم والأحياء القذرة. وما عندنا من فساد ديمقراطي، وانغماس أهل المدن في الدعارة.

ولكننا أصبحنا أرق نوعاً مما كنا، فنحن أقدر على الرحمة، وعلى الكرم للأغراب عنا أو غير المواطنين لنا حتى لو لم نكن نعرفهم. ففي عام واحد (سنة 1928) بلغ ما ساهمت به دولتنا في الإحسان الخاص والبذل في خير الإنسانية أكثر من ألفي مليون دولار... وهو نصف جميع المال المتداول في أمريكا. إننا لا نزال نشنق القتلة إذا حدث أننا قبضنا عليهم وحاكمناهم، غير أن هذا القصاص التقليدي الذي يأخذ الحياة بالحياة لا يزال يقلق بالنا بعض الشيء، وقد هبطت الجرائم التي تنقض فيها بالإعدام هبوطاً عظيماً. كان الناس في «مري إنجلترا» منذ مائتي عام يشنقون بحكم القانون إذا سرق أحدهم شيئاً. ولا تزال الأحكام قاسية على من لا يسرق الشيء الكثير. ومنذ مائة وأربعين عاماً كان المعدون في اسكتلندا عبيداً بالوراثة، وكان المجرمون في فرنسا يعذبون قانوناً وعلانية حتى الموت، وكان المدينون يسجنون في المجترات مدى الحياة، وكان ناس محترمون يغزون شواطئ أفريقية للحصول على العبيد. وكانت سجوننا منذ خمسين عاماً كهوفاً مألئى بالقاذورات والمخاوف، ومعاهد يتخرج فيها سفار المجرمين ليصبحوا من كبار المجرمين. أما الآن فسجوننا عبارة عن أماكن يرتاح فيها القتلة الذين أدركهم التعب. ونحن لا نزال نستغل الطبقات الدنيا العاملة، ولكننا نربح ضائرتنا بأعمال البر. ويسعى علم تحسين النسل أن يوازن بالانتخاب الصناعي بين الرحمة والإحسان وبين القسوة والإفناء للضعيف والعاجز مما كان في الزمن السابق أساس الانتخاب الطبيعي.

وقد يخيل إلينا أن العنف أصبح أكثر انتشاراً في العالم عما كان من قبل، ولكن الواقع أن الصحف هي التي أصبحت أكثر انتشاراً، فهناك مؤسسات كبيرة وقوية تزرع الأرض بحثاً عن الجرائم والفضائح التي تسري عن القراء ما يلقونه من عناء الكتابة بالاختزال والاقتمار على زوجة واحدة. وهكذا تتجمع كل المساوئ والسياسات من القارات الخمس في صفحة واحدة لتفتح لنا الشهية عندما نتناول الإفطار. وتنتهي من ذلك إلى أن نصف أهل الأرض يقتل النصف الآخر، وأن نسبة عظيمة من هذا النصف الباقي مقدمة على الانتحار. ولكننا ننزل إلى الشوارع، وندخل البيوت، ونحضر الاجتماعات ونركب آلاف من وسائل النقل فندهش حين لا نجد قتلة ولا منتحرين، بل نجد أدهأ صريحاً ديمقراطياً، ومروءة قلبية أكثر واقعية مما كان يصدر عن الناس من عبارات الشهامة، وحين كان الرجال يستعبدون نساءهم ويستوثقون من عنتهن بأقفال من حديد عندما كانوا يحاربون من أجل المسيح في البلاد المقدسة.

وتمثل طريقتنا في الزواج على ما فيها من فوضى وميوعة تهذيباً بديعاً أفضل من الزواج بالأسر أو الشراء، وما كانوا يسمونه «بحق السيد». فالوحشية أقل بين الرجال والنساء والأبناء والأبناء والمعلمين والتلاميذ مما سجله أي جيل في الماضي. ويعد تحرير المرأة وصمودها أمام الرجل دليلاً على رقة لم يسبق لها مثيل في الذكور الذين كانوا فيما مضى سفاكين للدماء، وازدهر الحب الذي كان مجهولاً عند البدائيين، أو لم يكن إلا إشباعاً لرغبة الجسد، وأصبح حديقة تمتلئ بالخناء والعاطفة، وارتفع فيها غرام الرجل بالمرأة وكأنه بخور يحترق في قصائد الشعر، على الرغم من امتداد جذور الحب في ثنايا الحاجات الطبيعية. أما الشباب الذي تزعج أخطاؤه الآباء المكثرون أعظم إزعاج، فإنه يكفر عن ذنوبه الصغيرة بهذا الشغف الفكري وهذه الشجاعة الخلقية، وهي أمور لن تقدر حق قدرها حتى نشمر التربية ثمارها وتنقي جو حياتنا العامة.

السابعة، الآلات، إننا نغني الآن في وجه الرومانتيكيين، وخصوم الآلات من المفكرين، ومطالب الرجوع إلى الحالة البدائية (القذارة، والشعابين، وبيوت العناكب، والبق) أغنية الآلات والماكينات والمحركات، التي استعبدت الإنسان ثم أخذت في تحريره. لا يجب أن نخجل من ازدهارنا، فمن الخير أن تصبح وسائل الراحة والإمكانيات التي كانت من قبل وقفاً على البارونات وأمثالهم مزية لجميع الناس، فقد كان من اللازم نشر الفراغ - حتى إذا أسئ استعماله في أول الأمر - قبل أن تتحقق الثقافة الواسعة. فهذه الاختراعات المتزايدة هي الأعضاء الجديدة التي نسيطر بها على البيئة المحيطة بنا. ولسنا في حاجة إلى تنمية هذه الأعضاء على أبداننا كما ينبغي أن تفعل الحيوانات، بل نصنعها ونستخدمها ثم نضمها جانباً حين الحاجة إلى استخدامها مرة أخرى. إننا نضع أذرعة هائلة تبني في شهر الأهرامات التي كانت تستنفد مليون رجل. ونصنع لأنفسنا عيوناً عظيمة تكشف عن النجوم الخفية في السماء، وأخرى صغيرة تنفذ إلى دقائق خلايا الحياة. إننا نتكلم إذا شعنا بأصوات هادئة تعبر القارات والبحار. إننا نتحرك على الأرض ونطير في الهواء بحرية الآلهة الخالدين. ولو سلمنا بأن مجرد السرعة أمر لا قيمة له، فإنها رمز للشجاعة البشرية والإرادة الثابتة، وهذا هو أعظم معنى للطائرات في نظرنا. فقد تحررنا في النهاية بعد أن طال قيودنا بالأرض مثل برومسيوس، حتى أصبحنا الآن نواجه عيون الصقور في كبد السماء.

لا... لن تقهرنا هذه الآلات. أما هزيمتنا الحاضرة أمام الماكينات من حولنا فهي أمر مؤقت، ووقفة في تقدمنا البصير نحو عالم لا عبودية فيه. وقد ارتفعت عن كواهلنا تلك الأعمال الدنيئة التي حقرت من شأن السيد والعامل على السواء، ووضعت في عضلات الحديد والصلب التي لا تكمل. ولن يمضي زمن طويل حتى يصب كل مسقط مائي وكل رياح طاقتها التي تجلب الخير في المصانع والبيوت، ويخلص الإنسان إلى أعمال العقل. إن ما يحرر العبيد هو الاختراعات لا الثورات.

الثامنة، العلم، لقد كان باكل على حق إلى حد كبير في قوله، إننا لا نتقدم إلا في المعرفة، وتعتمد هذه المواهب الأخرى على التنوير البطئ للعقل. وهنا في مجال البحث النبيل الصامت، وفي معارك المعامل قصة تصلح أن توازن خداع السياسة وعبث الحرب البربرية. هنا نجد الإنسان في أحسن أحواله، يرتفع سمواً خلال الظلام والاضطهاد نحو النور. انظر إليه واقفاً على هذا الكوكب الصغير يقيس، ويزن، ويحلل الأبراج التي لا يراها، ويتنبأ بدوران الأرض والشمس والقمر، ويشاهد مولد الأكوان وفنائها. أو هنا نجد عالماً رياضياً يبدو غير عملي يتبع قوانين جديدة معقدة أعظم التعقيد، فينير الطريق لسلسلة لا نهاية لها من الاختراعات التي تزيد في قوة جنسه. وهنا نجد قنطرة تزن مائة ألف طن من الحديد معلقة بأربعة حبال من الصلب وتمتد بشجاعة من شاطئ إلى الآخر تحمل عدداً لا يحصى من المارة. لعمري إن هذا لشعر يبلغ في روعته أسمى ما كتبه شكسبير. أو تأمل هذا البناء الذي يشبه المدينة والذي يضرب عالياً في السماء، تحميه شجاعة حسابنا من أي صدع، ويتألق كحجر الماس في الليل. وهنا في علم الطبيعة نجد أبعاداً جديدة، وعناصر جديدة، وذرات جديدة، وقوى جديدة. وهنا في السخور نجد الحياة قد سطرت سيرتها، وفي المعامل تعد البيولوجيا العالم العضوي للتغيير كما بدلت الفيزيكا المادة. ففي كل مكان تلقى هؤلاء الرجال المتواضعين يبخون بغير مكافأة، ومن العسير أن تفهم من أين ينبع إخلاصهم ويتغذى، ومع أنهم سيموتون قبل أن يثمر الشجر الذي يزرعونه للإنسانية فإنهم سائرون في طريقهم.

الحق أن هذا النصر الإنساني على المادة لا يضارعه حتى الآن أي نصر آخر من جانب الإنسان على نفسه. وهنا نجد أن حجة التقدم لا تزال مضطربة، ذلك أن علم النفس لم يكذب يوماً في فهم السلوك الإنساني والرغبة الإنسانية، وسيطرته عليهما أقل. وهذا العلم مختلط بالتصوف والميتافيزيكا، بالتحليل النفسي والسلوكية Behaviorism، بالأساطير الخاصة بالفرد، إلى أمراض أخرى خاصة بالبلوغ. هذا والمشاهدات الدقيقة والحالات المعدلة لا يقوم بها إلا علماء نفسانيون لا يسمع بهم أحد، وفي بلادنا تحيل النزعة الديمقراطية إلى المبالغة كل علم إلى «بدعة عجيبة». ولكن علم النفس سيعيش على الرغم من هذه الأمراض والأعاصير، وسينضج كغيره من العلوم بما يتحمله من مسؤوليات. ولو ظهر سيكون آخر يستعرض ميدانه، ويوضح مناهجه وأهدافه الصحيحة، ويبين «الثمرات والقوى» التي تحصل عليها - فأينا يجرو، وهو يعلم مفاجآت التاريخ ومثابرة البشر، على وضع حدود للأعمال التي يمكن أن تنشأ عن معرفتنا المطردة للعقل؟ فقد بدأ الإنسان في هذه الأيام يولي عن البيئة التي صنعها، وأخذ يصنع نفسه صنماً جديداً.

التاسعة، التربية، إننا ننقل الآن نقلاً أحكم إلى الجيل المقبل التجارب التي تجمعت عن الماضي. فهذا الإنفاق العظيم في المال والجهد لإعداد المدارس وتزويد جميع الناس بالتعليم أمر يكاد يكون ابتكاراً معاصراً، ولعله أبرز ملامح هذا العصر. فقد كانت الجامعات في الزمن الماضي ترفاً والقصد منها تعليم الذكور من الطبقة الفارغة Leisured class. وأصبحت الجامعات اليوم من

الكثرة بحيث يتيسر لكل من ينقطع للدرس الحصول على إجازة الدكتوراه. حقاً لم تتفوق على عباقرة الماضي الممتازين، ولكننا رفعنا مستوى المعرفة الإنسانية ومتوسط تلك المعرفة إلى درجة لم يسبق لها مثيل في أي عصر من عصور التاريخ. لا تنظر الآن إلى أفلاطون ولا إلى أرسطو، بل إلى المجلس الأثيني المتمصب المغفل القاسي، إلى الشعب المتمصب ومعاذره الأورفية، وإلى النساء المنزلات المستعبدات اللاتي لم يكنّ يستطعن الحصول على التعليم إلا إذا أصبحن محظيات.

ولو قيل إن العالم في الوقت الحاضر لم يتغير بعد تغيراً تاماً مع انتشار هذه المدارس، ومع تكاثر هذه الجامعات التي تعلم الجنسين معاً، فلن يكون قائله إلا لطفل غريب. الحق أن تجربة التعليم الكبرى في النظرة الشاملة للتاريخ تأخذ في البدء، ولم تستنفد بعد الوقت الكافي لتثبت مجاحها، ولا يمكن في جيل واحد أن تحو جهل وأوهام عشرة آلاف سنة. حقاً قد ينتصر الجهل المنتشر وتغصب الجمهور للمقائد على التعليم في النهاية، وليست هذه الخطوة من خطوات التطور مما يمكن وصفها بالثبات في أعمال البشرية، ومع ذلك فهناك نتائج طيبة تبدو للعيان. فلأمر ما كان التسامح وحرية الفكر أيسر ازدهاراً في الولايات الشمالية عنهما في الجنوبية إذا لم يكن ذلك بسبب قلة المال في أيدي أهل الجنوب لبناء ما يكفي من المدارس؟ ومن يدري لعل إشارتنا الوظائف البسيطة والرياسات المحدودة يرجع إلى أننا جيل نشأ من طبقات أنقلها عبه الحاجة الاقتصادية والاستقلال السياسي إلى حد لا يسمح بفسحة من الوقت لتعهد العقل بالرعاية؟ ترى أي ثمار ناشجة لجنيتها من التعليم حين يستمر كل منا في المدرسة حتى العشرين فتسمح له الفرصة لتحصيل كنوز الجنس الفكرية؟ أو تأمل مرة أخرى غريزة الحب الأبوي، هذا الدافع العميق الموجود عند كل أب سوي ليرفع أبناءه فوق نفسه، تجد فيه الدفعة البيولوجية للتقدم الإنساني، والقوة التي يجب أن نطمئن إليها أكثر من أي تشريع أو أي نصيحة أخلاقية، لأنها مغطورة في صميم جيلة الإنسان. لقد امتدت فترة البلوغ، بحيث تبدو الآن أكثر عجزاً، ولكننا نتمو أكثر كمالاً صوب ذلك الإنسان الأعلى الذي يكافح للتخلص من أنفسنا المظلمة. صفوة القول نحن مادة الحضارة الخام.

إننا نبغض التربية لأنها لم تقدم إلينا في شبابنا كما ينبغي أن تكون عليه. انظر إلى التربية لا على أنها تكديس كرهه للحقائق والتواريخ، بل على أنها صلة نبيلة بالعظماء. ولاعلى أنها إعداد الفرد «لكسب المعاش»، بل على أنها تنمية ما فيه من قدرة كامنة لفهم العالم الذي يعيش فيه، والتحكم فيه، وتقديره. وفوق هذا كله انظر إلى التربية في أكمل حدها، إنها الفن الذي ينتقل أكمل نقل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إلى أعظم عدد ممكن من الناس ذلك التراث الصناعي والفكري والخلقي والفني، الذي يصوغ الجنس من طريقه الفرد النامي ويسويه إنساناً. ولو سألت لماذا تصرف كالبشر لوجدت أن العلة في ذلك هي التربية. فنحن لا نكاد نولد بشراً، إذ نخرج إلى العالم حيوانات مسوخة وقذرة، ثم «تصبح» بشراً، فنلقي الإنسانية علينا خلال مئات من المسارب التي يصب فيها الماضي إلى الحاضر ذلك التراث العقلي والثقافي الذي يرفع

حفظه وجسمه ونقله الإنسانية اليوم بكل ما فيها من نقائص وجهل إلى مستوى أعلى مما بلغه أي جيل من قبل.

العاشرة والأخيرة، الكتابة والطباعة، ومرة أخرى لمجد خيالنا قاصراً عن حملنا على أجنحته حتى يرقمنا إلى الحد الذي نلتقط فيه نظرة شاملة، فليس في استطاعتنا تصور أو تذكر عصور الجهل الطويلة وعصور العجز والخوف التي سبقت ظهور الكتابة. ففي تلك القرون الخوالي لم يكن في استطاعة الناس نقل حكمتهم التي حصلوها بالمشقة إلا بالألفاظ المنطوقة الصادرة من الآباء إلى الأبناء. فإذا غفل جيل أو ضل. فقد وجب أن يرتقي الناس سلم المعرفة من جديد. أما الكتابة فقد خلعت على ثمرات العقول نوعاً جديداً من الدوام، إذ حفظت آفاقاً من السنين، وعبر آلاف من السنوات في الفقر والحرافة، الحكمة التي اهتمت إليها الفلسفة، والجمال البادي في الدراما والشعر. لقد ربطت الكتابة بين الأجيال بالتراث المشترك، وخلقت تلك المملكة المسماة دولة العقل حيث تجد العبقري بفضل الكتابة أداة تستمد منها الحياة.

واليوم كما وحدث الكتابة الأجيال، فقد أمكن للطباعة على الرغم من كثرة مبادئها أن توحد بين الحضارات. فلم يعد من الضروري أن تختفي الحضارة قبل فناء كوكبنا الذي نعيش على ظهره. ستغير الحضارة من موطنها، إذ لا نزاع في أن الأرض في كل أمة ستأبى في النهاية أن تهبط ثمارها لحرث عايب أو ملك مهممل. ولا بد أن مناطق جديدة ستفتن بما فيها من أرض بكر الجهود المتطلعة للمعرفة في كل جنس. ولكن الحضارة ليست شيئاً مادياً مرتبطاً ارتباطاً لا فكاك فيه كعبيد الأرض قديماً ببقعة معينة من الأرض، بل هي تراكم للمعرفة الفنية technical وخلق للثقافة. ولو أمكن نقل هذه المعرفة وهذه الثقافة إلى الأساس الاقتصادي الجديد فلن تموت الحضارة، بل تتخذ لنفسها وطناً آخر. ولا شيء يستحق الخلود سوى الجمال والحكمة، وليس من الضروري في نظر الحكيم أن تخلد بلده إلى الأبد، فسترضى نفسه إذا انتقلت آثارها لتصبح جزءاً من مقتنيات الإنسانية.

لسنا في حاجة إذن أن نقلق من أجل المستقبل. إن ما يشغل بالنا هو كثرة الحرب، فنقع فريسة في هذه الحالة العقلية لأمثال شبنجلر حين أعلن سقوط العالم الغربي. الحق أن هذا الترتيب المتعالم لمولد الحضارات وموتها في دورات منظمة، ترتيب دقيق أكثر مما ينبغي، وأكبر الظن أن المستقبل سيقتبث عبثاً شديداً بهذا اليأس المنتظر من الحساب الرياضي. فقد وقعت حروب في قديم الزمان، وهي حروب أسوأ من «حربنا الكبرى». وقد عاش الإنسان وعاشت الحضارة بعدها. ولم تكذب خمسة عشر عاماً على موقمة وأترلو حتى أنتجت فرنسا المنهزمة، كما سئرى، من المباقرة ما ملأ كل بيت في باريس. ولم يسبق لتراثنا من الحضارة والثقافة أن كان مستتباً بهذا القدر، ولا كان يمثل هذه الثروة. ونستطيع أن نسهم بنصيب قليل في تنمية هذا التراث ونقله على ثقة منا أن الزمان سيولي ما فيه من نفاية، ويبقى ما يثبت أنه حق وقيم ليضئ أجيالاً كثيرة.

ول ديورانت، مباحث الفلسفة، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، 1956.

9.2. البدائي في الزمان والمكان

ستأنلي ديفيد

كيف نحدد مواقع الشعوب البدائية في الزمان والمكان؟ للإجابة على هذا السؤال سأستخدم التخطيط المؤقت التالي الذي يستند على أربع مراحل كبرى في مراحل التطور. المرحلة الأولى تمتد من أول ظهور للثقافة في العصر الحجري القديم الأدنى، قبل حوالي نصف مليون سنة إلى حوالي سنة 10000 قبل الميلاد. أي أنها فترة تغطي فترة الانتقال من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث، وهذه الفترة الزمنية الهائلة، رغم تنوعها، تشكل، من وجهة نظر المراحل التالية، مرحلة الأصول الثقافية. لكن ما لدينا من معلومات تستند على أدلة أثرية ضعيفة، وتكاد معرفتنا بالأشكال الأصلية أو التي كانت موجودة آنذاك للغة، والتنظيم الاجتماعي، والدين، وما إلى ذلك، أن تكون معدومة، أي أن كل النواحي اللامادية المشكّلة للثقافة غير معروفة لنا. ولن تلقى دراسة الشعوب «البدائية» المعاصرة بأيّ ضوء واضح على هذه الأمور، فمثل هذه البحوث لا تبصّرنا «بفجر الوعي الإنساني» لأننا نقيم الافتراضات على أساس ما نجد من أدوات مادية (وجمالية) مصنوعة، معتقدين دائماً أن معرفتنا بالجماعات التي لم تصل بعد إلى مرحلة المدنية تنطبق على الأوضاع القديمة، مما يجعل أفكارنا من نوع تحصيل الحاصل. أريد أن أقول إن اصطلاح «البدائي» الأنثروبولوجي ينطبق، أو يجب أن ينطبق، على وضع الإنسان قبل ظهور المدنية، وبعد أقدم فترات النمو الثقافي الذي وصل مداه في العصر الحجري القديم الأعلى. لكن المؤسسات المعتادة عند الشعوب البدائية التي سأحدث عنها فيما بعد لها تواريخ طويلة قائمة، ويقدر ما أعلم فنحن لم نشهد ولم نحصل على وثائق عن الأصول الأولى لأي من هذه المؤسسات.

تبدأ المرحلة الثانية حوالي عام 9000 قبل الميلاد، وتستمر حتى بداية الشكل القديم لنظام الدولة أو المدنية، أي حوالي سنة 5000 قبل الميلاد في الشرق الأوسط، ولكن في أوقات تختلف كثيراً في بقاع العالم المختلفة. فالشعوب الهامشية مثلاً في الهضبة النيجيرية العالية أو في مجاهل غينيا الجديدة لم تأخذ بالانخراط في المجتمع السياسي إلا في هذه الأيام. هذه المرحلة من فترة الانتقال ما بين العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث إلى هذا الشكل أو ذاك من أشكال الدولة المبكرة هي فترة نشوء الأشكال الثقافية التي يمكن أن ندعوها «بدائية»، وهي مرحلة قابلة للدراسة والوصف أنثروبولوجياً. وهذه هي الحقبة الزمنية التي يعتبرها كلود ليفي شتراوس «بدائية»، وهي الوضع المستقر الذي بين لفجوي أن روسو حاول أن يرسم خطوطه العريضة في بحث عن أصول عدم المساواة. ومهما يكن من أمر فإن هذه النقطة التي وصلتها الشعوب في أوقات مختلفة وفي أماكن مختلفة هي التي تلتقي عندها الأبعاد التاريخية والمعاصرة

لمفهوم البدائية بطريقة مقبولة علمياً.

إن البحث عن الأصول لا يمكن الذهاب به إلى ما بعد فترة الانتقال ما بين العصر الحجري القديم والحديث بشكل فعال. إذ تشترك حتى أشد الشعوب هامشية - رجال الأدغال، والأسكيمو، وريما الاستراليون - مع كثير غيرها من الجماعات المحلية في صفات أساسية تجعل من المسير علينا أن نعتبرها ممثلة لمرحلة تطورية أبكر.

وإذا كانت كذلك بشكل من الأشكال فإن الاختلافات لا تهمننا في سياق بحثنا الراهن. وإذن يشير اصطلاح «البدائية» إلى مؤسسات واسعة الانتشار، حسنة التنظيم، وجدت قبل ظهور المدنيات القديمة بقليل، ولا يشير من الناحية التاريخية إلى فترة كانت الأصول الثقافية فيها على وشك الظهور، ولا من الناحية النفسانية إلى فترة كانت فيها العمليات التي تسمى بالعمليات الأولية تجد التعبير المباشر عن نفسها.

غير أن هذه الأنماط المؤسسية البدائية لا تختفي مع ظهور المدنيات القديمة، أي مع بدء المرحلة الثالثة من مراحل التخطيط المؤقت الذي يشمل المجتمعات السياسية في حوض البحر الأبيض المتوسط، والجزء الأقصى من الشرق الأوسط، والشرق الأدنى، والعالم الجديد.

تضم هذه المجتمعات القديمة شعوباً بدائية أو في حالة الانتقال من الوضع البدائي إلى الوضع الفلاحي، أو تحولت إلى شعوب فلاحية تماماً، تتأثر ثقافياً بالمراكز التسويقية وتعتمد عليها اقتصادياً. وهي ذات مدن «قبل الصناعة» يقوم مواطنوها وريقتها بالعمليات التجارية والاحتفالية والإدارية والمسكزية. وأغلب الظن أن معظم سكان العالم ما يزالون يعيشون في هذه البيئة الاجتماعية القديمة التي تبدو مستنفذة. ومن المؤكد أن معظم من درسهم الأنثروبولوجيون موجودون في هذه أو تلك من البنيات السياسية القديمة، سواء أحافظت على تكاملها أم لا. وفي بعض الحالات تكون العوامل التي تشد إلى المركز قد اختفت، لكن الجماعات المحلية تستمر في العيش وفي التعبير عن ارتباطاتها السابقة، كما هي الحال بين فلاحي ما بين الأمريكيتين، والهاوسا [في إفريقية]، وفي المثال التاريخي الذي تزودنا به نورمندي في القرون الوسطى بعد تجزؤ امبراطورية شارلمان.

لابد من التأكيد مرة ثانية أن هذه المرحلة الثقافية الثالثة يمكن أن تتطور قبل ظهور الزراعة والكتابة أو في غيابهما المطلق. فالزارعون المتقدمون في غرب إفريقية مثلاً أتجروا فائضاً كبيراً جعلهم يتمكنون من إقامة تنظيم ضم (أ) نظاماً معتداً من الضرائب والتجنيد الإجباري، (ب) نظاماً طبقياً متطوراً، (ج) بيروقراطية بدائية كانت وظيفتها الأولى هي الإدارة المالية العسكرية لمناطق جغرافية حسنة التحديد، (د) قوانين مدنية عملية وضعت أصلاً لتحسين كفاءة جمع الضرائب والتجنيد، (هـ) زعماء أو ملوكاً بدأوا يتمتعون بقوة دنيوية ضمن بنية سياسية ناشئة احتفظت بالكثير من أشكال المؤسسات البدائية السابقة، مع تحويل ماهيتها. وتستند هذه المجتمعات الزراعية المتقدمة في نفس الوقت على القوة المستمدة من قاعدة تبقى بدائية حقاً

حسب معايير سأحاول الإشارة إليها فيما بعد ، وتستمد بقاءها منها .
 أما المرحلة الثقافية الرابعة فهي الدولة الحديثة، أي المدنية المعاصرة التي تتزامن مع أقصى درجات التسييس الاجتماعي . وقد بدأت هذه العملية مع الثورتين التجارية والعلمية، واستمرت خلال الثورة الصناعية في أوروبا الغربية . وهي تنتشر الآن انتشاراً سريعاً، بأشكال مختلفة في بقاع العالم . ومع تقدم المجتمعات ذات التسييس الأقصى تنهار المميزات البدائية والقديمة ضمن حدودها وخارج حدودها . وبتمبير آخر، أصبحت الصفات البدائية التي تمكنت من البقاء تحت السطح أو في الأنماط الفكرية الشكلية للمدنيات القديمة وبين الشعوب المعزولة أكثر من غيرها، ضحية للثورة الشاملة التي أشعلها امتداد المدنية الحديثة . إن الصفات البدائية حقاً وتلك التي بلغت أقصى درجات التمدن هي ، في اعتقادي، صفات متعارضة إلى أقصى ما يمكن للصفات الثقافية أن تبلغه من تعارض ضمن حدود الوضع الانساني القائم . وهذه، على أي حال، هي حقيقة التاريخ الراهنة، وهي المشكلة التي يسعى هذا البحث إلى مواجهتها ، لأن مرض المدنية يكمن، في رأيي، في عجزها عن ضم البدائية إليها، إذ أنها لن تتجاوز حدودها إلا إذا ضمتها .

ستانلي ديفيد ، البحث عن البدائي، ضمن كتاب أشبلي موتافيو، البدائية، منشورات علم المعرفة، الكويت، 1982، ص. 168-172 .

10.2 . رحلة حي بن يقظان من الطبيعة إلى الثقافة أبو بكر بن طفيل

فلما قارب حي بن يقظان سبعة أعوام اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئاً جعل بعضه خلفه وبعضه قدامه، وعمل من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطه علق به تلك الأوراق [...] واتخذ من أخصان الشجر عصياً سَوَّى أطرافها وعدل متنها وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضيف منها ويقاوم القوي فتبل بذلك قدره عند نفسه بعض نيل . ورأى أن ليده فضلاً كثيراً [...] إذ يمكن له بها من ستر عورته واتخاذ العصي التي يدافع بها عن حوزته ما استغنى بذلك عن الذئب والسلاح الطبيعي (36-37)

فمتى وقع بصره على نبات حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أو عطش عطشاً يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب أن كان مما يزول ويفصل بينه وبين النبات المؤذي بفاسل لا يضر المؤذي وتعده بالسقي ما أمكنه . ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سيع أو نشب في أشتوطة أو تعلق به شوك أو سقط في عينيه أو أذنيه شيء يؤذيه أو مسه ظمأ أو جوع تكفل بإزالة ذلك كله عنه جهده وأطعمه وسقاه، ومتى وقع بصره على ماء يسيل إلى سقي نبات أو حيوان وقد عاقه عن مره ذلك عائق من حجر سقط فيه أو جرف انهار عليه أزال

ذلك كله عنه . وما زال يُعْمَنُ في هذا النوع من ضروب التشبيه حتى بَلَغَ فيه الغاية وأما الضرب الثاني فكان تشبيهه بها فيه أن ألزم نفسه دوام الطهارة وإزالة الدنس والرجس عن جسمه والاختسال بالماء في أكثر الأوقات وتنظيف أظفاره وأسنانه ومغابن بدنه وتطيبها بما أمكنه من طيب النبات وصنوف الأدهنة العطرة وتعهد لباسه بالتنظيف حتى كان كله يتلألأ حسناً وجمالاً ونظافة وطيباً. (114-116)

فشرح أسال في تعليمه الكلام أولاً بأن كان يشير له إلى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق فينطق بها مقترناً بالإشارة حتى علمه الأسماء كلها . ودرجه قليلاً قليلاً حتى تكلم في أقرب مدة فجعل أسال يسأله عن شأنه ومن أين صار إلى تلك الجزيرة فأعلمه حي بن يقظان أنه لا يدري لنفسه ابتداء ولا أباً ولا أمّاً أكثر من الطيبة التي ربه ووصف له شأنه كله وكيف ترقى في المعرفة حتى انتهى إلى درجة الوصول . فلما سمع أسال منه وصف تلك الحقائق والذوات المفارقة لعالم الحس، العارفة بذات الحق عز وجل ووصف له ذات الحق تعالي وجل بأوصافه الحسنى ووصف له ما أمكنه وصفه مما شاهده عند الوصول من لذات الواصلين وآلام المحجوبين لم يشك أسال في أن جميع الأشياء التي وردت في شريعته من أمر الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وجنته وناره هي أمثلة هذه التي شاهدها حي بن يقظان . (143-144)

أبو بكر بن طفيل رسالة حي بن يقظان، في أسرار الحكمة المشرقية.

11.2. منطلق التاريخ الثقافي للإنسان

ج . برونوفسكي

إن تاريخ الإنسان مقسم بشكل غير متكافئ. فقد عاش الإنسان ما لا يقل عن مليون عام وهو يهيم على وجهه في مجموعات أسرية يجمع غذاءه من ثمار النبات البري ويصيد أحياناً بعض الحيوان ليأكله نيئاً مع أسرته، وكانت معيشته هذه أقرب إلى معيشة الحيوان . ثم هناك التاريخ الثقافي للإنسان، ويشمل الانطلاقة الحضارية الضخمة التي تفصلنا عن بعض القبائل البدائية التي لا تزال تعيش معتمدة على الصيد في إفريقيا، أو القبائل التي تعيش بجمع الغذاء من البيئة في استراليا . وقد استغرق هذا التطور الحضاري عدة آلاف من السنين فقط، ويمكن القول أنه بدأ منذ فترة تتراوح بين عشرة آلاف وعشرين ألف عام، ويتحدد أكثر منذ ما يقرب من اثني عشر ألف عام .

وستكون فترة الاثني عشر ألف عام الأخيرة هذه محور حديثي واهتمامي، إذ أنها تتضمن تقريباً جميع مراحل تقدم الإنسان وإرتقاؤه، والبون شاسع في المقياس الزمني بين فترة

معيشة الانسان الأول شبه الحيوانية وفترة التقدم الثقافي. فبينما الفترة الأولى تمتد إلى مليون أو مليوني عام تمتد الفترة الثانية إلى أقل بكثير من عشرين ألف عام. وفيها تمكن الانسان من التقدم المذهل من إنسان يعيش معيشة بهيمية بدائية إلى إنسان متحضر لديه حصيلة ثقافية هائلة وخبرات وأهداف ملموحة.

إن النقطة المهمة بالنسبة للتطور الحضاري هي مرحلة البداية والانطلاق. والسؤال المطروح في هذا المجال هو: لماذا بدأ التطور الحضاري، الذي جعل الانسان سيداً على الأرض، منذ فترة قريبة نسبياً ولم يبدأ قبل ذلك؟ قبل عشرين ألف عام تقريباً كان الانسان في كل بقاع الأرض التي وصل إليها يهيم ويأكل ما تنبته الأرض أو يصطاد قوته. وكانت أحدث أساليبه أن يظل على مقربة من قطع متنقل تماماً كما لا تزال تفعل قبائل اللاب Lapps السويدية، ثم تغير ذلك قبل عشرة آلاف سنة إذ أخذ الانسان يدجن بعض الحيوانات ويزرع بعض النباتات، وكان هذا هو التغير الذي انطلقت منه المدنية. ولعله شيء يفوق المعتاد أن ينطلق التحول الحضاري قبل إثني عشر ألف عام فقط. ولا بد أن تفجراً غير عادي قد جرى قبل ميلاد المسيح بعشرة آلاف عام. ولكنه كان تفجراً من النوع الهادئ، فقد كان نهاية العصر الجليدي.

وكان على هذا المخلوق الذي جاب الأرض وهام على وجهه مليوناً من السنين - أن يتخذ قراره الحاسم: هل يتوقف عن حياة البداوة المترحلة ويصبح قروياً؟ وواضح من الكتب المقدسة أن الانسان دخل في مرحلة مفضية من صراع الضمير قبل أن يتخذ قراره في هذا الشأن. وأعتقد بأن المدنية تعتمد على هذا القرار. أما بالنسبة للأناس الذين لم يتخذوا ذلك القرار الحاسم فلم يبق منهم إلا قلة على قيد الحياة. فشمه قبائل بدو رحل لا تزال تعيش ردة إنسانية هائلة تجوب الأرض من بقعة لأخرى سعياً وراء الكلاً والماء كقبيلة البختياري في إيران وما عليك إلا أن ترافق تلك القبيلة في ترحالها لتدرك بأن المدنية لا يمكن أن تنمو مع الترحال.

ج برونوفسكي، ارتقاء الانسان، منشورات عالم المعرفة الكويت، 1981، ص. 13-15.

12.2. المظاهر الأولية للحضارة

قُسْطَنْطِينُ زُرَيْق

إننا نلاحظ بادئ الأمر المظاهر الحضارية الناشئة عن صنع الانسان في الطبيعة المحيطة به. وهو صنع يقصد الانسان به، كما قلنا، إلى حماية نفسه من عوامل الطبيعة المؤذية والتغلب على موانعها وحدودها وإلى ضمان عيشه وسد حاجاته المادية باستغلال إمكاناتها ومواردها. ويتمثل هذا الصنع في ثلاثة أنواع من المظاهر، يتمثل أولاً في الأدوات والآلات التي يخترعها الانسان لاستطباع الحيوان، أو لحرث الأرض، أو لحياكة الثياب، أو للتنقل من مكان إلى آخر، أو للاتصال بالآخرين، أو لمحاربة الأعداء، أو لأي غرض آخر من الأغراض الكثيرة التي ينصرف

إليها لكفالة عيشه ووقاية نفسه وزيادة قوته وثروته ومد نفوذه وسلطانه. وقد جذب هذا الصنع الانساني نظر البعض فجملوه خاصة الانسان الأولى وعرفوا الانسان بأنه المخلوق الصانع homo faber. ولهذا التعريف ما يسنده إذ يدل على ميزة إنسانية بارزة، وإن لم تكن في نظرنا الميزة الأولى أو الأوفى دلالة على معاني الانسانية. ومهما يكن موقفنا من هذا التعريف، فمما لا شك فيه أن الأدوات والآلات هي مظهر هام من المظاهر التي تميز حضارة ما عن سواها، كما تميز المراحل المختلفة للحضارة الواحدة. وهي تختلف من حيث البساطة أو التعقد، والظنظة أو الدقة، والبدائية أو الاكتمال، ولكنها جميعاً - من الحجر المدقوق إلى الدولاب إلى المطرقة والسندان إلى المرجل البخاري إلى المحرك الكهربائي إلى الآلة الالكترونية الحاسوبية التي تكاد تداني دماغ الانسان إلى الكثير الذي لا يحصى من أمثالها - عنوان للمجتمع الذي ولدها وللحضارة التي أيدعتها. ولا بد للمؤرخ الذي يدرس الحضارات الماضية أو لمن يبحث في الحياة الحضارية القائمة اليوم من أن يلحظ هذا المظهر ويهتم به ويستكشف دلالاته ومعانيه.

أما النوع الثاني من المظاهر الحضارية التي يتمثل بها صنع الانسان في الطبيعة فهو المنتجات الحاصلة من استخدام هذه الأدوات، كالمحاصيل الزراعية، والسلع التجارية، والمصنوعات والمنشآت. فالحبوب والخضار والثمار، والألبسة على أنواعها، والعربات والسيارات، والأسلحة والأجهزة الحربية. والبيوت وما تحويه من أثاث ورياش، والكتب والمجلات، والراديو والسينما وسائر وسائل التسلية والاستمتاع - كل من هذه وأمثالها من المنتجات المصنوعة بالآلات والأدوات، المهياة للإستهلاك هي أيضاً عنوان للحضارة، أو للمرحلة الحضارية، التي تنتج فيها. وتبدو، كالأدوات، على درجات متفاوتة من البساطة أو الدقة، ومن القلة أو الكثرة، ومن التشابه أو التنوع، فتكون هذه الحالات والأوصاف دلالات على الأوضاع الحضارية، ويكون التفاوت بينهما دليلاً على ما بين هذه الأوضاع من تمايز وتفاضل.

على أن هذين النوعين من المظاهر الحضارية اللذين يتمثل بهما صنع الانسان في الطبيعة - أدوات الاتاج، وما ينتج بها - ليسا في الواقع سوى حصائل للنوع الثالث ووسائل لفعله ونموه وتطوره. ونعني بهذا النوع قدرة الانسان على تطويع الطبيعة ودفع عواذيبها واستدراار ثرواتها. هذه القدرة التقنية أو المهارة التكنيكية هي التي يبدو فيها الانسان، بأجلى ما يبدو، صانعاً في الطبيعة، مستخرجاً مركباً مكيافاً مخترعاً مستكشفاً. إنها ذخيرة من المعرفة الناشئة عن التجربة والاختبار، اكتسب بادئ الأمر ببطء وعسر، ثم ما فتئت تغزو وتتزايد خلال العصور، حتى غدت اليوم معيناً زاخراً، بل سيلاً جارفاً، متدفقاً من شتى منابع الصنع ومصادر العلم والاختصاص. لقد كانت قدرات ومعارف متفرقة، ثم أخذت تنتظم فيما بينها. وأخذ الانسان يستكشف تبعاً للمبادئ التي تنشأ عنها والروابط التي تجمعها، فقدت «علمية» بروحها ومنهجها وتاجها. وبهذا كوّنت أحد المجرىين المتلاقين المتفاعلين اللذين يتألف منهما العلم، وتقصده به المجرى التقني التطبيقي الذي يساير المجرى النظري ويمده ويستمد منه، ويعمل وإياه بقوة واستمرار في تنمية

قدرة الانسان على الطبيعة وفي توسيع إدراكه لها وفهمه لسنتها وقوانينها .
 هذه القدرة التقنية المتزايدة المنتشرة هي، كما هو معروف، من أعظم مزايا الحضارة الحديثة إن لم نقل أعظمها. على أننا لن نعد هنا إلى النظر فيها وتحليلها في وضعها الحاضر، فلهذا مكان آخر من هذا الكتاب. وإنما جئنا ما نفيه الآن هو أن نؤكد أن القدرة التقنية الحاصلة في أية حضارة أو في أية مرحلة حضارية، والبادية في ماتمتع به تلك الحضارة من أدوات إنتاج أو حاجات استهلاك، هي مظهر هام من مظاهر ودليل من أبرز دلالاتها.

وشيء آخر نلاحظه عن هذه القدرة التقنية وعمما يلازمها من مظاهر صنع الانسان في الطبيعة، هو أنها من أسرع العناصر الحضارية انتقالاً من مجتمع إلى مجتمع ومن حضارة إلى حضارة، ومن أمد هذه العناصر قابلية للتلاقي للتزايد والتكامل. ولعل هذه الميزة الأخيرة هي التي تدعو فريقاً من الباحثين إلى اعتبار القدرة التقنية أوفى المظاهر دلالة على التحضر. فإذا كانوا من القائلين بتعدد الحضارات واختلافها سنفوا هذه الحضارات بحسب حظها من هذه القدرة. وإذا كانوا من الذين يعتقدون بحضارة إنسانية واحدة متطورة اتخذوها دليلاً على درجة التطور، أو سنفوا بحسبها المراحل والعصور المتتابعة التي جازتها هذه الحضارة. ويبنى هذا التصنيف أحياناً على المواد المختلفة التي استطاع الانسان أن يطوعها ويصنع منها أدواته وحاجاته أو يستخدمها في سبيل هذا الصنع. وعلى هذا الأساس يقسم البعض التاريخ الانساني إلى العصور الحجرية، فحصر النحاس، فحصر الحديد، فحصر الفولاذ، فحصر البخار، فحصر الكهرباء، فحصر الذرة. أو يميزون عصوراً أخرى من هذا القبيل. وبسبب أهمية المعادن لتوفية حاجات الانسان الحضارية وما لاستخراجها واستخدامها من دلالة على قدرة تقنية مكتسبة. يتخذ التعدين مظهراً رئيسياً من المظاهر الدالة على انتقال البشرية، أو أي مجتمع من مجتمعاتها، من ظلمات «ماقبل التاريخ» إلى نور «التاريخ» أو من المراحل البدائية إلى مراحل التحضر.

ويتبع هذا التصنيف أحياناً أخرى السمة الغالبة التي تتسم بها القدرة التقنية من حيث طرق الانتاج وأساليبه. وهنا أيضاً تبدو أدوار وعصور مختلفة متتابعة. فثمة الدور القنصي، والدور البدوي، والدور الزراعي، والدور التجاري، والدور الصناعي، والمراحل المختلفة في كل من هذه الأدوار، وبخاصة في الثلاثة الأخيرة منها. (ومن الذين يمتنون هذا التصنيف من يشك في سحة اعتبار الدور التجاري دوراً قائماً بذاته - على بروز التجارة في بعض العصور كما حدث في أوروبا في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر - وذلك على أساس أن التجارة تلازم الزراعة والصناعة في كل جيل من الأجيال وتطور بتطورهما). ونظراً لأهمية الاستقرار في نشوء الحضارة، كما رأينا سابقاً، تتخذ الزراعة في هذا النوع من التصنيف، كما يتخذ التعدين في النوع السابق مظهراً من مظاهر الانتقال من الحياة البدائية إلى حياة الحضارة والتاريخ، فتعبر فاتحة للعصور التاريخية والمراحل الحضارية في كل مجتمع من المجتمعات أو في المجتمع الانساني بوجه عام.

13.2. السوسيوبولوجيا: ثقافتنا ذاتها مُسجَلةٌ في خلايانا جي سورمان

إن التطور الدارويني قد اصطفى لدى النمل هاته السلوكات الاجتماعية المعقدة والملائمة لتكاثرها. وهذه السلوكات كلها مورثة ومنقولة عبر الخلايا الوراثية. ليس لدى النمل أي شيء ينتمي إلى الثقافة أو ينتقله الوسط. فهذه الحشرات الاجتماعية غير معنية بالنقاش ثقافة/طبيعة، فطري/ مكتسب. فكل شيء لديها فطري وطبيعي [...] أما بالنسبة للكائن البشري، فإن لدينا فيما يرى إدوارد ويلسون E.O.Wilson (مؤسس السوسيوبولوجيا) صعوبة في التعرف على مقدار انشراطنا لبيولوجيتنا، وأن ما نعتقد أنه يشكل ثقافتنا المكتسبة هو في الواقع أمر مسجل في تراثنا الخلوي التناسلي [...] إن رواد السوسيوبولوجيا يرجحون أن سلوك الكائنات الحية رهين بالاصطفاء الطبيعي وليس إلى الانتقال الثقافي. [...]

وحسب ويلسون فإن النقاش الحقيقي الدائر اليوم لا يتواجه فيه الداروينيون والاداروانيين. فنظرية التطور نظرية صحيحة ولا غبار عليها، والنقاش يدور داخل الداروينية وفي إطارها. فالبعض مثل ستيفن غولد S.Gould يعتبرون أن التطور ينطبق على كل الأنواع الحية حتى ظهور الانسان. لكنهم يرون أن الانسان العارف Homosapiens، قد توقف، منذ ظهوره، عن التطور وأن ذهنه يوفر له حرية كاملة، غير مبرمجة قبليا. وحسب هذه المدرسة فإن الثقافة قد حلت محل الطبيعة، كعنصر فاعل في تطور الانسان. أما المدرسة الثانية، وهي السوسيوبولوجيا، فتري أنه من التناقض القبول بأن الدماغ هو نتاج التطور والقول في نفس الوقت بأن هذا الدماغ قد انفلت بعد ذلك من أي إكراه بيولوجي [...]

لقد بين ويلسون في كتابه الأساس Sociobiology الصادر سنة 1973 أن بإمكان هذا العلم الجديد أن يتنبأ بالسلوكات الانسانية. لكن تحت وطأة النقد، وتطور البحث أخذ ويلسون يعتقد بأن الاصطفاء التوالدي يفسر أقل فأقل سلوكاتنا كلما ابتعدنا عن حالتنا البدائية. فهو يقبل بأن التطور الثقافي قد واصل منذ آلاف السنوات المهمة التي كانت موكولة للتطور الطبيعي. لكن ذلك لم يحدث بصفة كلية وشاملة، فخلايانا الوراثية ما تزال تقود ثقافتنا، أحيانا تتراخى حتى تصبح غير مرئية، لكنها موجودة دوما على وجه الترجيح. وفوق ذلك فإن هناك فيما يرى ولسون نوعاً من التفاعل المتبادل، و«نوعاً من التقييم المشترك للثقافة والطبيعة». فبعض السلوكات الثقافية تنتهي إلى أن تتسجل في تراثنا التناسلي، إذ تكفي بضغ آلاف من السنوات ليتحقق ذلك. وعلى كل حال فليس من الممكن، في نظر ويلسون، أن تعتبر قبليا أن كل تغيير تاريخي هو أساسا تغيير ثقافي، وأن ليس له بعد خلوي وراثي «

14.2. الطَّبِيعَةُ - الْإِنْسَانُ - الْحَضَارَةُ

فِرُونِد

لقد تكلمنا للتو عن معاداة الحضارة، المتولد عما تمارسه وعما تتطلبه من نكران للفرائض. هل تتصورون جميع تلك النواهي وقد رفعت؟ في هذه الحال سيكون في وسعكم أن تستولوا على كل امرأة تروق لكم، بدون تردد، أو أن تقتلوا منافسكم أو كل من يقف في طريقكم، أو أن تختلسوا من الآخر ما شئتم من أملاكه من دون أن تأخذوا موافقته ! ألا كم سيكون ذلك جميلاً، وما أكثر الملذات التي ستقدمها لنا الحياة في هذه الحال ! لكن الصعوبة الأولى لا تلبث في الحقيقة أن تنكشف بسرعة. فلتقربي نفس ما لدي من رغائب، ولن يعاملني بمراعاة أكبر من تلك التي سأعامله بها. وفي الواقع، لو حطمت القيود التي تفرضها الحضارة، فلن يمكن لغير انسان واحد أن يتمتع بسعادة لا محدودة، هو الطاغية، الدكتاتور الذي يكون قد احتكر جميع وسائل الردع والفسر، وفي هذه الحال لن تعوزه المسوغات والأسباب لكي يتمنى أن يتقيد الجميع بهذه الوصية الحضارية اليتيمة على الأقل، لا تقتل.

لكن كم يكون المرء جاحداً للجميل، حسير النظر، لو طمح إلى إلغاء الثقافة ! فلو ألفت الثقافة لما بقي شيء، آخر سوى الحالة الطبيعية، وهذه يصعب تحملها أكثر من الحضارة بكثير. صحيح أن الطبيعة لا تطلب منا أن نحد من غرائزنا، بل ترخي لها حبل الحرية كاملاً، لكن لها طريقته، وهي طريقة فعالة للغاية، في تقييدنا، فهي تقضي علينا بكل برود وقسوة ووحشية، على ما نتصور وتفضل ذلك بالضبط إرضاء لنا في بعض الأحيان. وإنما بسبب هذه الأخطار التي تتهددنا بها الطبيعة اختصرنا المسافات فيما بيننا وتقاربنا وأوجدنا الحضارة التي من مبررات وجودها تمكيننا من الحياة المشتركة. وفي الحق، إن المهمة الرئيسية للحضارة، مبرر وجودها الأول، أن تحميها من الطبيعة.

ونحن نعلم أنها تؤدي هذه المهمة في العديد من المجالات على خير وجه، وأنها ستؤديها في المستقبل، بلا شك، على وجه أفضل أيضاً. لكن ما من إنسان يعزل نفسه بوهم أن الطبيعة قد روضت، وقليلون هم الذين يجرؤون على أن يأملوا في تسخيرها بكاملها ذات يوم للإنسان. وإليك العناصر التي تهزأ بكل نير قد يحاول الانسان فرضه عليها، الأرض التي تزلزل وتنشق وتبتلع الانسان وما صنعت يدها، الماء الذي يثور ويفيض ويغرق كل شيء، العاصفة التي تكس كل ما في طريقها. وهي ذي كذلك الأمراض التي يتنا نعلم منذ أمد قصير، ليس إلا، أنها تنشأ عن هجوم كائنات حية أخرى. وانظروا أخيراً إلى لغز الموت الموجع، الموت الذي لم توجد له حتى الآن أي ترياق والذي لن نجد له أبداً. أن الطبيعة بهذه القوى. تنتصب في وجوهنا معادية، عظيمة، قاسية، لا تشفق ولا ترحم. وهي تذكرنا أيضاً بضعفنا وعوزنا اللذين كنا نأمل أن ننجو

منهما بفضل كد حضارتنا وكدحها. وإنه لوأحدٌ من أندر المشاهد الرائعة والنبيلة التي يمكن أن يقدمها البشر أن نراهم يواجهون كارثة من كوارث العناصر الطبيعية وقد تناسوا خلافاتهم ومشاحناتهم وخصوماتهم التي تفرق بينهم كي يتذكروا مهمتهم الكبرى المشتركة: الحفاظ على الانسانية في مواجهة قوى الطبيعة المتفوقة.

إن الحياة ليصعب تحملها بالنسبة إلى الفرد كما بالنسبة إلى الانسانية بوجه عام. فالحضارة التي يشارك فيها تفرض عليه درجة محددة من الحرمان، ويسبب له الناس الآخرون مقداراً معيناً من الألم، إما بخرقهم تعاليم هذه الحضارة وإما بسبب نقصها وعدم كمالها. أضف إلى ذلك المصائب التي تنزلها به الطبيعة الجامحة غير المروضة، والتي يطلق عليها اسم المقادير. وقد يتجم عن ذلك قلق وهم دائمان من النوائب، وأذلال خطير للنرجسية الطبيعية. ونحن نعلم ما رد فعل الفرد على الأضرار والخسائر التي تنزلها به الطبيعة وسائر بني الانسان، فهو يواجه مؤسسات هذه الحضارة بمقاومة يتناسب حجمها وآلامه، ويتقف من الحضارة بالذات موقف العداء. لكن كيف يذور عن نفسه خطر قوى الطبيعة أو المقادير العليا التي تتهدده بمثل ما تتهدد به سائر بني الانسان؟

إن الحضارة تعفيه من هذه المهمة مثلما تعفي سائر الناس، وبثفس الطريقة. وأنه لما يلفت النظر أن جميع الحضارات تسلك هنا المسلك عينه. فالحضارة لا تتوقف لحظة واحدة في أدائها لمهمة الدفاع عن الإنسان ضد الطبيعة، ولكنها تغير فقط منهجها. والمهمة هنا متعددة الوجوه: فشعور الانسان انخاس بعزته وكرامته، المعرض على الدوام إلى التهديد، يصبو ويتطلع إلى عزاء وترضية، والكون والحياة لا يبد من تحريرهما من مخاوفهما، ثم إن الفضول البشري، الذي لا شك في أن حافزه يكمن في أقوى الاعتبارات العملية، يتطلب جواباً.

الخطوة الأولى إذن في هذا الاتجاه هي بحد ذاتها تجلية عظيمة. وجوهرها «أنسنة» الطبيعة. فنحن لا نستطيع أن نواجه قوى ومقادير لا شخصية، فهي تبقى غريبة وأجنبية عنا أبداً. لكن إذا كانت نفس الأهواء التي تموج في نفوسنا تضطرم في قلب عناصر الطبيعة، وإذا لم يكن الموت أمراً عفويّاً وإنما فعل عنيف ناجم عن إرادة خبيثة، وإذا كنا نحن أنفسنا محاطين في كل مكان من الطبيعة بكائنات تضارع وتشبه الأدميين الذين يحيطون بنا، فإننا نتنفس الصعداء عندئذ، ونشعر وكأننا في بيوتنا وإن كنا في جوف ما هو خارق للطبيعة، ونستطيع بالتالي أن نتهاى نفسياً خفوفنا الذي ما كنا لنعرف له معنى من قبل. وقد نبقي عزلاً من السلاح، ولكننا لا نعود مشلولين بدون أي أمل، بل نستطيع على الأقل أن نرد، بل لعلنا لسنا حتى عزلاً من السلاح، إذ يسمننا بالفعل أن نلجأ في مواجهة تلك الكائنات العليا العنيفة إلى نفس الطرائق التي نستخدمها داخل مجتمعاتنا البشرية، فنحاول أن تسلمتها ونهدتها ودرشوها. وتختلس بالتالي من خلال تأثيرها هذا عليها جزءاً من سلطانها. وهذه الاستعاضة عن علم طبيعي بعلم نفسي لا توفر لنا سوى انفراج فوري، ولا تدلنا على الطريق الواجب اتباعه للسيطرة على الوضع بأحكام أكبر.

3. ترويض الثقافة للطبيعة

1.3. التّاريخُ في الطّبيعةِ

جودوليه

إنّ الحدودَ بين الطبيعة والثقافة، والتمييز بين ما هو مادي وما هو فكري تميلُ إلى الانحياز عندما نحلل القسم من الطبيعة الذي هو خاضع مباشرة للإنسان، منتج أو معاد إنتاجه من طرف الانسان (الحيوانات والنباتات والأدوات والأسلحة والملابس ...). هذه الطبيعة التي هي خارجية بالنسبة للإنسان ليست خارجية بالنسبة للثقافة والمجتمع والتاريخ. فهي ذلك الجزء من الطبيعة الذي تم تحويله بواسطة الفعل الانساني ومن ثمة بواسطة فكر الانسان. إن هذا القسم واقع مادي وواقع فكري في نفس الوقت، أو على الأقل فهو مدين في وجوده للمفعل الواعي الذي يقوم به الانسان في الطبيعة، وهو الفعل الذي لا يمكن أن يوجد ولا أن يعيد إنتاج نفسه بدون أن تتدخل منذ البداية لا فقط الوعي، بل الفكر بجانبه الواعي وغير الواعي، الفردي والجماعي، التاريخي وغير التاريخي. وهذا الجزء من الطبيعة هو الطبيعة المتملكة والمؤسسة، أي التي أصبحت مجتمعا، أو التاريخ مسجلا في الطبيعة.»

Godelier, M: L'idéal et le réel. Fayard 1984, p. 13-14.

2.3. الحضارةُ وتسخيرُ الجنس

فرويد

بديهي أن الحضارة من جهتها لا تنزع إلى توسيع الدائرة الثقافية فحسب، بل تسمى أيضاً، وبالتدريج نفسه، إلى تضيق الحياة الجنسية. فمنذ طورها الأول، طور الطوطمية، تنطوي سننها على تحطير اختيار الموضوع من بين المحارم، وهو تحطير يعادل في أرجح الظن أعنف بتر وأدنى تشويه فرض على مر الزمن على حياة الحب لدى الكائن الإنساني. ويقوة المحرمات والشرائع والأعراف، تفرض قيود جديدة على الرجال والنساء على حد سواء. لكن الحضارات لا

تقطع جميعها هذا الشوط الطويل على هذا الطريق، فبنية المجتمع الاقتصادية تمارس بدورها تأثيرها على المقدار الذي يمكن أن يبقى قائماً من الحرية الجنسية. ونحن نعلم جيداً أن الحضارة تنصاع بصدد هذه النقطة للضرورات الاقتصادية، لأنها مكرهة على أن تقتطع من الحياة الجنسية مقداراً غير قليل من الطاقة النفسية كي تستخدمه لأغراضها. وهي تتبنى هنا سلوكاً مماثلاً لسلوك قبيلة أو طبقة من السكان تستغل وتشهب قبيلة أو طبقة أخرى منهم بعد أن تكون قد أخضعتها لسيطرتها. فالخوف من تمرد المضطهدين يحض على تدابير وقائية أشد صرامة. وقد بلغت حضارتنا الأوروبية الغربية، كما تبين لنا، نقطة أوج في هذا المسار. ولكن لئن بدأت بتحضير صامم لأي تظاهرة للجنسية الطفلية، فإن هذا الفعل الأول له كامل تبريره من وجهة نظر علم النفس، لأن حجز رغبات الراشد الجنسية المضطربة لاحظ له في النجاح ما لم يهد له منذ الطفولة بعمل تحضير. أما ما ليس له من مبرر البتة فهو مغالاة المجتمع المتحضر في هذا السبيل إلى حد نفي هذه الظواهر الجلية السافرة التي ليس أسهل من إثبات وجودها. فاختيار الموضوع من قبل فرد بالغ جنسياً سيُحصر بالجنس الآخر، وسيجري تحضير معظم التلبينات الخارجة عن النطاق التناسلي بوصفها انحرافات. وضروب الحظر المتنوعة هذه تعبر عن مطلب حياة جنسية متماثلة للجميع، وهذا المطلب، بتعاليه على التفاوتات التي يشتمل عليها التكوين الجنسي الفطري أو المكتسب للكائنات الإنسانية، يحرم عدداً لا يستهان به منها من اللذة الأيروسية، ويغدو بالتالي مصدراً لظلم فادح. وقد يتمثل نجاح هذه التدابير الرادعة عندئذ في الواقعة التالية، فالاهتمام الجنسي يندفع برمته، على الأقل لدى الأفراد الأسوياء الذين لا يتعارض تكوينهم مع هذا النوع من رد الفعل، في «أقنية» تركت مفتوحة، وهذا من دون أن يتعرض ذلك الاهتمام لأي هدر أو نقصان. لكن الشيء الوحيد الذي يبقى حراً وقاتلاً من ذلك الحظر، أي الحب الجنسي والتناسلي الفيوري، يقع بدوره أسير تقييدات جديدة تفرضها الشرعية وأحادية الزواج. فالحضارة المعاصرة لا تتردد في المجاهرة باعترافها بالعلاقات الجنسية شرط أن يكون أساسها القران الذي لا فسام له، والذي يعتقد مرة واحدة ونهائية، بين الرجل والمرأة، كما لا تتردد في إعلان عدم قبولها بالجنسية بوصفها مصدراً مستقلاً بذاته للذة، وفي إعلان عدم استعدادها للتسليم بها إلا بصفتها عامل تكاثر ما أمكن لأي شيء. آخر أن يتوب منابه حتى يومنا هذا.

طبيعي أن ذلك هو الشطط بعينه. وكل إنسان يعلم أن هذه الخطة قد ثبتت عدم صلاحها للتطبيق، ولو لأجل قصير. والحق أن الضعفاء هم وحدهم الذين أمكن لهم أن يتكيفوا مع مثل تلك القيود الواسعة على حريتهم الجنسية. أما أصحاب القوة والعزيمة فلم يقبلوا بها إلا مقابل منحهم تمويلاً سيأتي دور الكلام عنه لاحقاً. وقد اضطرت المجتمع المتحضر إلى التفاوض عن مخالفات عديدة كان يفترض فيه أن يلاحقها لو أنه كان متمسكاً فعلاً بسننه، وفيما لشرائعه. ولنحاذر، من جهة أخرى، من الوقوع في الخطأ المعاكس بتسليمنا بأن مثل هذا الموقف الذي تقفه حضارة من الحضارات لا ينتج عنه أي أذى أو ضرر ما دام لا يحقق مراميها جميعاً. فالحياة الجنسية

للكائن المتحضر تعاني، بالرغم من كل شيء، من غبن خطير وخلل فادح، وهي توجي إلينا أحياناً بأدبها وظيفية آيلة إلى ضمور، مثلها في ذلك مثل أسناننا وشعرنا بوصفها أعضاء. وأنه ليحق لنا، ولو بوجه الاحتمال، أن نفترض أن أهميتها قد تناقصت بصورة ملموسة بصفتها مصدراً للسعادة، وبالتالي بصفتها تحقيقاً لهدفنا الحياتي.

فرويد، *معلق في الحضارة*، ترجمة ج. طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1977، ص. 60-62.

3.3. الجسمُ موضوعاً للإستهلاك

جان بُوذْرِيَارْدُ

في المنظور الشامل للإستهلاك، أجمل موضوع، وأثمن موضوع، أي الموضوع المفجر أكثر من غيره والأكثر امتلاءً بالدلالة، إنه الجسم. "إعادة اكتشافه" بعد ألف سنة من العظمية، تحت شعار تحرير الجسم والجنس، وحضوره الكلي (وبخاصة الجسد الأنثوي) في الإشهار، والموضة، والثقافة الجماهيرية، والطقوس الصحية والعلاجية والغذائية التي يحاط بها، وهوى التشبيب، والأناقة، والرجولة، والأنوثة، وأشكال العناية المختلفة بالجسم، والحمية، وطقوس التضحية المرتبطة بكل ذلك، وأسطورة اللذة التي تغلفه، كل ذلك يشهد اليوم على أن الجسم موضوع خلاص *object de salut*. فقد حل الجسم محل الروح في هذه الوظائف الأخلاقية والايديولوجية.

هناك دعاية مستمرة تذكرنا بأنه ليس لنا إلا جسم واحد، وأنه يتعين المحافظة عليه وإنقاذه. خلال قرون بذل جهد كبير في إقناع الناس بأنه ليس لديهم جسم (رغم أنهم لم يقتنعوا تماماً) أما اليوم فتبذل جهود أخرى لإقناعهم بأهمية جسمهم. هنالك شيء غريب في ذلك. أليس الجسم هو نفسه؟ يبدو أن الأمر ليس كذلك، فمكانة الجسم واقعة تنتمي إلى الثقافة. والحال أنه في أية ثقافة من الثقافات نرى أن نمط العلاقة مع الجسم تمكس نمط تنظيم العلاقة مع الأشياء، ومع العلاقات الاجتماعية ذاتها. ففي المجتمع الرأسمالي تسري المكانة العامة للملكية الخاصة على الجسم كذلك، وعلى الممارسات الاجتماعية المتعلقة به وعلى التصورات الذهنية التي نكوها عنه. أما في المجتمع التقليدي، لدى الفلاح مثلاً، فلا وجود لاستثمار نرجسي ولا وجود لإدراك حسي تضخيمي للجسم، بل هناك فقط رؤية أداتية سحرية للجسم مستخلصة من العمل اليدوي والعلاقة المباشرة مع الطبيعة.

إن ما نودّ إبرازه هو أن البنيات الحالية للاستهلاك/ الاستهلاك تنتج لدى الذات ممارسة مزدوجة، مرتبطة بشتمل منفصل (لكنه متضامن) لجسمه الخاص، تمثل الجسم كراسمال وقمله كتميمة (موضوع استهلاك) وفي الحالتين فإن المهم أن يكون الجسم - بدل أن يتم إنكاره أو

إهماله - فإنه يتم استثماره بوعي وقصدية استثماراً مزدوجاً: اقتصادياً ونفسياً.

Jean Baudrillard, *La société de consommation*, Gallimard, Coll. Idées,

p.199 -201.

4.3. اللباس لغة الجسم

رولان بَارْطُ

لا يمكننا أن نتحدث عن الجسم الانساني دون أن نطرح مسألة اللباس، لأن الثياب - فيما يقول هيجل - هي اللحظة التي يصبح فيها المحسوس دالاً، أي أن هي الثياب ما يصبح به الجسم دالاً وبالتالي حاملاً لعلامات خاصة.

في المجتمعات القديمة كان اللباس وظيفة إشهار وإظهار الإشارة إلى حالات مختلفة وظروف مختلفة ومهن مختلفة، أي إلى اختلافات طبقية. ولم يكن الجسم الانساني يرى عارياً، فالعري لم يكن موجوداً إلا في بعض التمثيلات الدينية وبصورة فيها الكثير من التسامي. في هذا المجتمع كانت المهنة متجسدة في اللباس، وكان اللباس ذاته متجسماً في الجسم. كان الجسم متجارحاً كلياً ولم يكن متمرباً بل متماهياً مع مكانة ما ضمن تراتبية اجتماعية معينة.

أما في المجتمع المعاصر فنحن نعرف أنه كان هناك في بداية القرن التاسع عشر بعد الثورة الفرنسية ومع انبثاق الديمقراطية، نوع من توحيد اللباس. فقد كانت الطبقات العليا التي ظلت موجودة حتى في ظل الديمقراطية، في حاجة للتمييز عن الطبقات العاملة إلى ابتداء تفاصيل لباسية معينة قادرة على إنتاج هذه القيمة الخاصة بمجتمع القرن التاسع عشر التي هي التميز. وإذ ذاك بدأت الموضة في الانتشار الذي اتخذ الأبعاد التي نشاهدها اليوم.

واليوم ماذا يحدث؟ لنقل بأن هناك نزعة قطعية متصاعدة في مجال اللباس، وأن هذه القطعية تتوقف على نوع من التبعية التي تجعل البعض يتخذ نمطاً من اللباس، ومن ثمة الجسم، مثال ذلك لباس الشباب والشعر الطويل ونماذج الاقتداء المختلفة بمختلف النجوم.

وإذا كان هناك تعديل للجسم فهو ما يتعلق بالتمايز بين الجنسين. والآن هناك ميل إلى الغاء الفرق بين الجنسين في اللباس. فالجسم - اللباس يفقد تمايزه والجسم يتحرر من اللباس. ويعود العري إلى الظهور في مرونة وفسحة اللباس المنفتح بسهولة. في فترة ماضية كان العنق مطوقاً ومغلقاً بربطة العنق التي كانت تؤدي وظيفة إخفاء العنق. لكن العنق يتحرر الآن وتفتح القمصان. وبالرجوع إلى فكرة هيجل نرى أن للثياب المقصود والمراقب لمقاطع من اللباس يؤدي وظيفة جعل الجسم الجديد، الجسم الحديث يعبر عن نفسه ويصبح دالاً.

Roland Barthes: *Encore le corps in Critique* 1978.

5.3. تقنيات الجسد: النوم مارسيل موس

تقنيات النوم - إن القول بأن النوم شيء طبيعي مسألة غير دقيقة تماماً. (...) إن من السهل أن نميز بين المجتمعات التي ليس لديها ما تنام عليه، باستثناء الأشياء الصلبة، والمجتمعات التي تستعين ببعض الأدوات. بعض الحضارات تتميز عن غيرها باستعمال خشبة تحت العنق خلال النوم. والمتكأ في الغالب عبارة عن طوطم منحوت أحياناً من أشكال أناس جالسين القرفصاء، أو من حيوانات طوطمية. وهناك أناس يستعملون الحصائر وأناس بدون حصائر (آسيا - قسم من أمريكا). هناك أناس يستعملون الوسادة وأناس بدون وسادة. وهناك جماعات بشرية يتزاحمون في دوائر وينامون حول النار أو يدونها. وهناك طرائق بدائية في التدفئة أو في تسخين الأرجل. فالفويجيون (Les Fugiens) (سكان أرض النار) الذين يعيشون في أماكن باردة جداً لا يعرفون إلا تسخين الأرجل خلال النوم، وليس لهم إلا غطاء واحد من الجلد. وهناك أخيراً النوم وقوفاً. فالماساي (وهم سكان كينيا وتانزانيا) يمكن أن يناموا وقوفاً. وقد نمت واقفاً في الجبال. وكثيراً ما نمت فوق الحصان، بل أحياناً نمت وأنا أمشي؛ وقد كان الحصان أذكى مني. يقدم لنا مؤرخو الغزوات القدامى صورة عن الهونس والمونغول وهم نائمون على الحصان. ونوم راكب الحصان لا يؤدي إلى توقف الحصان عن السير. وهناك استعمال الغطاء. هناك أناس ينامون متغطين وغير متغطين وهنا السرير المعلق وطريقة النوم المعلقة.

وهناك إذن كمية كبيرة من الممارسات التي هي في نفس الوقت تقنيات للجسم، والتي هي ذات صدى كبير، ومنحولات بيولوجية.

Marcel Mauss, *Sociologie et anthropologie*, PUF, 1968, p. 378 - 383.

6.3. سوسولوجية الأحلام رُوجيه باستيد

إلى أية درجة يفيد الحلم عالم الاجتماع؟ يبدو أن المجتمع يرخي بثقله على الفرد، أثناء نومه. حول هذه النقطة، يتفق فرويد و «هالفاكس» Halwachs. فالأول يكلمنا عن تقلص الرقابة بحيث يسهل تسرب رغباتنا التي تكبت أثناء اليقظة؛ في حين أن الثاني يكلمنا عن غياب الأطر الاجتماعية من الذاكرة، مما يؤدي إلى أن تصبح صورة المخيلة غير معروفة كذكريات. بكل حال، لا يمتد هالفاكس بأن القطع شامل بين الأنا والمجتمع؛ «نحن لا نخلق

تماماً البشر والأشياء كما في وضعيات الحلم، فهم مأخوذون من تجربتنا أثناء اليقظة، أي أننا، في حالة العزلة، حيث يحتوي النوم، نرى من جديد ما اجتاحت أبحارنا وبذل حواسنا حين كنا على اتصال مع أمثالنا. وأكثر من ذلك، فنحن لا نرى هذه الصور فقط، لكننا نعرفها... لأننا ننسب إليها معنى ونستطيع أن نعرضها في اليقظة، أي أن نؤولها مستعينين بمفاهيم مشتركة مع أشخاص جماعتنا. وهذا يعني بالتالي أن جزءاً على الأقل من عادات الحياة الاجتماعية يستمر في حياة الحلم». بنفس الطريقة، لا يجعل فرويد من تفكيرنا الحلمى تعبيراً عن ذاتنا الأكثر عمقاً، لكنه يعتقد أن الرموز التي يستخدمها هذا التفكير هي ذات مدلول جماعي، يبقى هو نفسه بالنسبة لجميع الناس، ويجده أيضاً في الأساطير كما في الكوابيس، لدرجة يمكن لنا فيها أن نضع قاموساً شاملاً بها.

روجييه باستيد، «السوسيلوجيا والتحليل النفسي»، دار الخدائة بيروت، 1988، ص. 237.

7.3. دَوْرُ الحَضَارَةِ فِي صِيَاغَةِ الشَّخْصِيَّةِ كَلَايِدْ كَلُو كَهُون

وإذا ما سلمنا بأن الشخصية هي، لحد كبير، نتاج التعلم، وأن كثيراً من التعلم مقرر ومسيطر عليه حضارياً، فيجب أن نشير إلى وجود نوعين من التعلم الحضاري، أحدهما فني والآخر تنظيمي. فتعلم جدول الضرب تعلم فني، في حين أن تعلم قواعد السلوك (مثل عدم البصق في كل مكان بدون تمييز في مجتمعنا) هو تعلم تنظيمي. ولا يستطيع الطفل في أية واحدة من الحالتين أن يتعلم من تلقاء نفسه، بل يجب أن يُعطى أجوبة عما يسأل عنه. وكلا هذين النوعين من التعلم مرغوب فيه وضروري للفرد، رغم أنه حتماً سيقاومها لحد معين. وأحد هذين النوعين يهدف لجعل الفرد منتجاً، ونافعاً اجتماعياً، لزيادة ثروة المجتمع وقوته. ويهدف النوع الثاني من الثقافة إلى التقليل من كون الفرد مزعجاً لمجموعته إلى القدر المستطاع، وإلى منعه من إرباك الآخرين، ومن خلقه عدم الانسجام داخل المجموعة، وما إلى ذلك من الأهداف. ومن الجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن لغة الكلام العام تفرق بين المعنيين السالفين باستعمال الداليتين المختلفتين التي تعطيهما كلمة «جيد» حين تستعمل في معرض المدح لأحد الأشخاص. فحين يوصف الشخص بأنه «جيد» إما أن يقصد أنه لين مطواع وسهل الانقياد من الناحية الخلقية والاجتماعية، أو يقصد أنه ماهر قدير بصورة غير اعتيادية.

وتخصص المدرسة في مجتمعنا بشكل تقليدي للتعلم الفني، والبيت والكنيسة للتعلم التنظيمي. وعلى كل حال فهناك تداخل كبير بين النوعين من التعلم. فالبيت يعلم بعض الأساليب الفنية كما أن المدرسة تعلم بعض الأخلاق وآداب السلوك.

هناك بعض التمديدات المعنية بالنسبة إلى الوقت الذي يبدأ فيه كل من التعلم الفني

والتعلم التنظيمي وبالنسبة إلى المدى الذي يجب أن يستمر فيه كل واحد منهما. ويقرر تلك التمديدات الكيان والنظام الطبيعي لكل شخص، في حين يقرر المدى النضج الطبيعي والكمية المتوافرة من التعلم السابق. فمثلاً، لا يستطيع الطفل أن يحصل على مهارة السير حتى يتم الربط الضروري بين أجزاء جهازه العصبي. والتعليم عن طريق إصدار التعليمات لا يتم بشكل صحيح حتى يصبح الطفل قادراً على الكلام. فلكل مرحلة أو عمر مهام خاصة به ومميزة له. وإن كلا من حدود المراحل العمرية والمهام التي تلتقي على الأفراد في تلك المراحل تختلف كثيراً من حضارة لأخرى، ولكن التطور يحدث في كل مكان على خطوات ومراحل ودرجات. ولا يبلغ الطفل مستوى معيناً من التكيف إلا ليرقى لمستوى آخر وآخر. وهذا الأمر واضح الوضوح كله في المجتمعات غير المثقفة، أما المدى الذي يقوم به صفوف المدرسة بالنسبة إلى الطلبة وما تقوم به المحافل والنوادي بالنسبة إلى البالغين من فصل بين ذينك النوعين من التعلم في مجتمعنا فيجب ألا ينكر أثره. ومعنى هذا أن شخصية أي فرد بالغ، لحد ما، هي حصيلة تتابع لطبقات من العادات، رغم أن المبادئ المنظمة للشخصية ربما حققت في فترة مبكرة ثباتاً نسبياً يخلق الاستمرارية. ففي مرحلة الطفولة المبكرة فقط يبدو الطفل وكأنه يتصرف بطريقة اعتباطية. ثم سرعان ما يظهر أمارات تدل على أنه قد كون سياسة خاصة بشخصيته التي تمده غالباً بالميل إلى جهات معينة طيلة حياته، رغم أن ذلك يحدث بأشكال مستترة خفية.

وبتعبير آخر، فشخصية الفرد البالغ كالبناء المتكامل، الذي يقوم على مبادئ تكاملية ولكنه بالوقت عينه يحتوي على مستويات ومساحات مختلفة، هي أساسية للبناء ككل. فلو درسنا شخصية من الشخصيات من زاوية المستويات لرأينا أن استجابات مميزة لمرحلة من مراحل الشخصية تحمل محل استجابات أقل منها تعقيداً هي بدورها مميزة لمرحلة سابقة، تستر ردود الفعل اليسيرة التي كانت تعتبر مثالية في تلك المرحلة السابقة. وتستجيب الشخصية نفسها لحالات مختلفة باستجابات مختلفة اختلافاً كبيراً. فكل شخصية قادرة على أكثر من هيئة واحدة من التعبير. ويعتمد تعبير الشخصية بهيئة معينة على المجال النفسي والأداء الحضاري. فإذا ما تناول الإنسان شيئاً، فيسيطر وضع الأشياء المحسوسة المحيطة باليد على حركتها المحسوسة. ومثل هذا، ينظم إحساس الفرد بنفسه وبالأخرين بصورة جزئية الأوجه التي تظهر بها الشخصية في حدود الإطار الحضاري.

لعل من المناسب وصفيًا أن نتحدث عن مناطق نووية Nuclear وأخرى خارجية Peripheral من الشخصية. ورغم أن التبدلات في المنطقة النووية من الشخصية، تكون في بعض الأحيان تافهة بذاتها، فإنها دائماً تبدل سياسة الشخصية، وهي بالضرورة ذات أنواع واضحة المعالم والخصائص. أما التبدلات في المنطقة الخارجية فإنها كمية وقد تحدث دون تبديل في الخصائص الشخصية الأخرى. فالأدوار الرئيسية للشخصية (الشفوي والشرجي والتناسلي) تتطلب تبدلات نووية، ولكن تلك التبدلات النووية يجب أن تكون مصحوبة بالتكيفات الأكثر سطحية

الخاصة بالمركز الاجتماعي وبالذور الاجتماعي التي تتطلبها كل حضارة من الأفراد حين يبذلون عمراً معيناً أو يكونون من جنس معين أو يؤدون عملاً معيناً. وتحدث التبدلات في المنطقة الخارجية من الشخصية، في أغلب الحالات، عندما تتوفر حرية نسبية ليتحقق التكيف. كما أن هناك دائماً موضوع العلاقات المتبادلة بين معنى التبدل الخارجي بالنسبة إلى التبدل النووي الأقل قابلية على التبدل. فالحضارات إذن تملك بالضبط صفة البناء الهندسية عينها التي ألفيناها في الشخصية.

كلايد كلوكهون، الإنسان في المرأة، الترجمة العربية بتعداد 1964 من 382-385.

8.3. التَّنَفُّسُ ذَاتَهُ وَاقِعَةٌ ثَقَافِيَّةٌ

سبِير

يمكننا، ويتعين علينا أن نبحث عن المنصر الاجتماعي في أصغر الحركات الانسانية. لنأخذ حالة التنفس مثلاً. هناك طرائق مهدبة في التنفس؛ وهناك طرائق أخرى ليست كذلك. نستطيع أن نتخيل أن الفرد هو المتحكم في وتيرة تنفسه، لكن لنبحث فيها أثر الممرقة العملية بفن الحياة، أو آثار التراث وبذلك نعلم على نموذج اجتماعي. فهناك التنفس المحسوب بالثواني لدى الهندي الذي يمارس اليوغا، والتنفس المكتوم لذلك الذي يشارك في جنازة صديقه المتوفى، والتنفس المراقب الذي يلقنه مفتي الأوبرا لتلاميذته؛ وتلك كلها نماذج من السلوك الخاضع لتوجيه المجتمع، ولكل من هذه النماذج مكانها في تاريخ الثقافة الإنسانية، (...) ليس هناك أي فرق بين عملية تنفس - شريطة أن ننظر إليها كسلوك اجتماعي - وأي نظام سياسي أو ديني. ويبقى أنه يكون من الأحسن، في بعض الحالات تحليل السلوك من منظور اجتماعي وفي حالات أخرى من خلال الفرد. إلا أنه في هذه الحالة يكون منظور الملاحظ هو مدار المسألة وليس الظاهرة ذاتها»

من كتاب

Saphir, Anthropologie, Point, 1967, p. 36 - 37. Bartholy et Despin, La culture Magnard, 1976.

9.3. دَوْرُ الثَّقَافَةِ فِي صِيَاغَةِ شَخْصِيَّةِ الْفَرْدِ وَطَبِيعِهِ

م مِيد

يكون من المسموح به لنا الآن أن نؤكد بأن سمات الطبع التي نصفها بأنها ذكورية أو أنثوية هي في جزء كبير منها، إن لم يكن في كليتها، محددة من طرف نوع الجنس بصورة

شكلية مثلما هو الأمر بالنسبة للشباب، والعادات السلوكية، أو طريقة الخلاقة التي يعينها عصر من العصور لهذا الجنس أو ذلك. عندما نقابل بين السلوك النموذجي لرجل أو امرأة من الأرابيش مع السلوك النموذجي لرجل وامرأة من قبائل موند وغومور فإن كلا منهما يظهر كنتيجة للتأثير الاجتماعي. كيف نفسر بغير ذلك أن أطفال قبائل الأرابيش يندون بشكل متماثل تقريباً بالفنن مسالمين، وسليبين وواثقين من أنفسهم، في حين أن شباب قبائل الموندوغومور يتحولون إلى كائنات عنيفة وعدوانية وقلقة؟ إن المجتمع وحده، الذي ينزل بكل ثقله على الطفل، يمكن أن يكون هو الصانع لكل هذه المفارقات. وليس هناك أي تفسير آخر - سواء أشرنا إلى العرق أو التغذية أو الاسطفاء الطبيعي. ونحن مضطرون لاستخلاص أن الطبيعة البشرية مرنة ومطواعة بصورة واضحة. وأنها تخضع بوفاء لما يفرضه عليها الجسم الاجتماعي، وإذا كان هناك شخصان ينتمي كل منهما لحضارة مختلفة، وهما مختلفان، فذلك لأنهما منشرطان كل منهما، بشكل يختلف عن الآخر، خلال السنوات الأولى من حياتهما، إذ أن المجتمع هو الذي يقرر حول طبيعة هذا الانشراط. وتشكل شخصية كل جنس من الجنسين لا نفلت من الخضوع لهذه القاعدة، فهذا التشكيل هو من اختصاص المجتمع الذي يسهر على أن يخضع كل جيل، مذكراً أو مؤدث، إلى النمط الذي فرضه هذا المجتمع.

من M. Mead, Moeurs et sexualité en Océanie, Plon, 1963, p. 252-256.

Durans G Les grands textes de la sociologie moderne, Bordas 1969, p. 84.

10.3 . المتخيل والرمزي

لوي ألتوسير

إن الاكتشاف الأساسي للأكان هو الانتقال من الوجود البيولوجي إلى الوجود الإنساني، حيث أظهر أن هذا الانتقال يتم ضمن قانون النظام الذي سأدعوه قانون الثقافة، وأن هذا النظام يختلط في جوهره الصوري مع نظام اللغة. (...)

وهذا الانتقال يمر عبر لحظتين كبيرتين:

- 1 . لحظة العلاقة الثنائية، قبل المرحلة الأوديبيية، حيث لا يكون للطفل علاقة إلا مع أمه أو أبه التي تلعب حياته بحضورها وغيابها (القوى)، وبها هذه العلاقة بشكل مباشر وبنوع من التماهي الترجسي الأولي دون أن يستطيع أن يتخذ مسافة تجاه هذا الآخر وتجاه ذاته.
- 2 . اللحظة الأوديبيية حيث تظهر بنية ثلاثية على أرضية البنية الثنائية عندما يختلط عنصر ثالث (هو الأب) خلسة بعملية الاشباع المتخيل، فمفجراً البنية الثنائية، وواضحاً حداً لإعجاباتها، ومقحمياً الطفل في ما يدعوه لآ كان بالنظام الرمزي، نظام اللغة القادرة على موضعة الأشياء، هذه اللغة التي تمكن الفرد من أن يقول أخيراً: أنا، أنت، هو أو هي، وهذا هو ما يمكن الكائن

الصغير من أن يوضع نفسه كطفل بشري ضمن عالم من الذوات الأخرى الراشدة.
لحظتان كبيرتان إذن،

1. لحظة المتخيل (قبل الأوديبى)؛

2. لحظة الرمزي (أوديب بعد حله) [...]

ولحظة المتخيل مطبوعة ومبينة في جدليتها بجدلية النظام الرمزي، أي النظام الإنساني، نظام المعيار الإنساني (معايير الوتائر الزمنية للتنذية والتنظيف، والسلوك، والمواقف العملية، والتقبل والرفض، والنعم واللا الموجهة للطفل هي العملة الرائجة والنمط التجريبي لهذا النظام الذي يشكل الطفل، نظام القانون والحقوق بظهورية الإسنادي والإقصائي، الذي هو نظام دال يتخذ في شكله صورة نظام اللغة.

وهناك حيث لم تر قراءة معينة لفرويد إلا طفولة سعيدة وبدون قانون، وفردوساً من «الانحراف المتعدد الأشكال» أي نوعاً من الحالة الطبيعية التي تسمها فقط لحظات من المسار البيولوجي للفرد، فإن لا كان يُظهرُ فعالية النظام، والقانون الذي يترصد الطفل قبل ولادته ذاتها، ويستولي عليه منذ صرخته الأولى ليستند له موقماً ودوراً، وبالتالي مصيراً إرغامياً.

مع بعض التسرف عن Position, E.S, Paris 1976, p.p 24-27

11.3. الفِطْرِي والمَكْتَسَبُ مُتْرَابِطَانِ أ. جَاكَارْدُ

كل ما يتجلى في ذاتي، سنفي الدموي، لون بشرتي، دائرة رأسي، الحصة التي أصبْتُ بها وأنا طفل، أو هذه السِّمة من سِمَات ذكائي، كل ذلك ناتج عن آليات بيولوجية تتوقف في نفس الوقت على

- المعلومات التي يحملها إليّ الإرثُ التناسلي الذي تُنْقَلُ إليّ أُمِّي نصفه وأبي نصفه الآخر، أي ما هو "فطري" لدي.

- علاقاتي مع المحيط من حيث المواد المتوفرة والطاقة والقراءة والحالة العاطفية... أي ما هو مكتسب لدي.

ومن المفري أن تسأل عن التأثيرات التي يمارسها هاتان المجموعتان وأن تطرح السؤال: ماهي حصة كل منهما؟ يبدو من الواضح مثلاً أن سنفي الدموي قد حددته عناصر فطرية، في حين أن الحصة قد ولدتها عوامل مكتسبة. وقد يبدو أن هذا السؤال لا معنى له، وأن محاولة الإجابة عنه لا يمكن أن يقود إلا إلى عدد من القضايا اللامعقولة.

وفعلاً، فما يطرح مشكلاً في تعبير «فطري ومكتسب» ليس لا الفطري ولا المكتسب (إذ يمكن تحديدهما بسهولة)، بل هو حرف الواو الذي يرمز إلى نوع العلاقة بينهما. لكن هذا

الحرف، الذي هو بمثابة كمين، سيدفعنا إلى الحذر تجاه عملية الجمع هاته، التي هي عملية ضرورية في الحياة اليومية.

إن الخطأ المنطقي يتعلق هنا، مرة أخرى، بدراسة ظاهرة ناتجة عن العديد من العوامل المتداخلة، عن طريق عزل أحدهما بشكل تصفي عن الآخر. إن فكرنا غير مدرب على التفكير من خلال ألفاظ التفاعل، ويحاول أن يستبدل الواقع بنماذج يفعل فيها كل سبب على حدة. وكل المسائل المتعلقة بالفطري والمكتسب هي مسائل من هذا النوع، فهي لا تستحق أية إجابة لأنها تنفي الواقع الذي تزعم أنها تحاول أن تدرسه.

A. Jaccard, Moi et les autres, Seuil 1983, p. 33 - 46.

12.3. الإنسان وقابلية التعلم

وَأَلْفُ لُتُون

إن أبرز صفات «الإنسان العاقل» من حيث إنه نوع من الرئيسات، هي قابليته للتعلم إلى مدى بعيد جداً. وليس لأي نوع لبون آخر استعداد للتعلم كاستعداد أو اعتماد واسع كاعتماده على التعلم في محاولاته للتمشي مع بيئته. وإذا ما استعملنا تعبير الشخصيات البشرية بأوسع ما في هذا التعبير من معان، فباستطاعتنا القول بأن الشخصيات البشرية يمكن أن تُصاغ إلى درجة فائقة عن طريق الثقافات التي يتعرض لها الأفراد إبان فترة تكوينهم. والتعبير عن كل نزعة فطرية يكاد يمكن في كل حالة كبتة أو تعديل بطريقتة تجد فيها النزعة أسلوباً آخر للتعبير عنها بطريقتة غير مباشرة تكون مقبولة اجتماعياً. ومثل هذا التدريب على كبت النزعات وتغيير وجهتها هو في الواقع جزء حيوي في تهيئة الأفراد للحياة بوصفهم أعضاء في أي مجتمع. وعلى كل حال فإن التدريب الذي يكبح جماح نزعات كهذه أو يغير اتجاهاتها لا يستأصلها كلياً، فهي تبقى عوامل يجب أن يحسب حسابها إذ أنها تعقد جميع الأوضاع الاجتماعية وتؤثر في تطور جميع النماذج الاجتماعية. وفي الوقت الذي لا يمكن لها فيه أبداً أن تدل على خط سير بمفرده وكأنه الخط المحتمل الوحيد في تطور أنظمة اجتماعية، نراها تجعل خطوط سير معينة في التطور أكثر سهولة من خطوط سير أخرى، وتفرض أقصى الحدود الواسعة على الأشكال التي قد تتخذها المجتمعات لنفسها. وجميع الأنظمة الاجتماعية التي تتطور بواسطة الآلية العادية للسلوك المتغير وتكامله في النهاية ضمن مجموعة من النماذج المثالية، جميع هذه الأنظمة تأخذ هذه النزعات بعين الاعتبار، وليس لنظام نظري تطور بمفرده أية فرصة ليصبح قائماً عملياً إن عجز عن الاعتراف بوجود هذه النزعات الفطرية.

ويمكن توضيح أثر هذه الصفات الفطرية على تأسيس النماذج الاجتماعية بصورة أقرب إلى فهمنا إذا نحن استعملنا التشبيه التالي البسيط: إن الذي يسير في الحقول على غير هدى

كثيراً ما يصادف في تجواله سياجاً من الأسلاك الشائكة. هناك عدة طرق ممكنة لاجتياز السياج إلى الناحية الأخرى إذ قد يسير المرء بمحاذاته إلى أن يصل بوابة أو يتدحرج من تحته معرضاً نفسه بذلك لتتمرغ في التراب وللنيل من مقامه أو قد يبدو له أن يخطو من فوق الحاجز إذا كانت الأسلاك تسمح بذلك، ولكن مهما كانت الطريقة التي يختارها للاجتياز فمن الثابت أن وجود الحاجز يعدل بعض الشيء من سلوكه عند النقطة التي اعترض الحاجز تجواله فيها. ويمكن كذلك توجيه الصفات الفطرية للكائنات البشرية أو تجنب أثرها المباشر بطرق عديدة مختلفة، غير أن وجودها ذو تأثير على تكوين جميع الأنظمة الاجتماعية. حتى عندما يكون الفرد قد تدرب تدريباً ناجحاً على كبت بعض هذه الصفات الفطرية فإن كبتها لا يكون ساراً له، كما أن فرض ذلك من ناحية اجتماعية يتسبب في نشوء الشواب والمقاب في الثقافة بنية تعزيز أثر التدريب. لذا لا يمكن لمجتمع أن يكتفي بتعليم أعضائه تجنب السرقة وإنما عليه أيضاً أن يدعم هذا التعليم بمقويات رادعة للسرقة حتى ولو اقتضت العقوبة على السخرية. أما إذا رأى المجتمع أن يتخذ مزيداً من الإجراءات الجزائية الممينة، فعليه أن يمضي في تطوير وسائل لاكتشاف اللص والتثبت من ذنبه وتطبيق العقوبة عليه.

إن الصفات الفطرية في الكائنات البشرية وثيقة الارتباط بنا ونحن نعتبرها أمراً مسلماً به، بحيث غالباً ما يكون تمييزها صعباً علينا. فمثلاً من العسير علينا أن ندرك أن الانسان من الرئيسات التي تأكل النباتات والحيوان، وأن هذه الحقيقة لها أثر هائل على تطور الثقافة. وتقبل الانسان لجميع أنواع الغذاء مكنه من استغلال بيئته في هذه الناحية استغلالاً يكاد يكون تاماً وأثار فيه اهتماماً فعالاً بالنبات والحيوان معاً، مما أدى مع الزمن إلى تطور الزراعة وتدجين الحيوانات، وهذان النشاطان مجتمعان ضروريان للحياة المستقرة في معظم أرجاء العالم. ولو وجدت كائنات تشبه بذكائها النوع البشري وكانت من النوع الذي يعيش على أكل النبات فقط لكان بإمكانها أن تطور الزراعة، وكان من العسير عليها تدجين الحيوانات، أضف إلى ذلك أن عدم وجود أسمدة حيوانية من شأنه أن يستنزف التربة الزراعية ويضطر القوي إلى الانتقال في فترات وجيزة. ولنذكر عدداً آخر من تأثيرات خصائص الانسان الفيزيولوجية على تطور الثقافة. فكون الانسان يمضي منتصباً على ساقيه جعله يستعمل الدرج، بينما الأنواع ذوات الأربع تجد المنحدرات أكثر مناسبة لها. وقلة الشعر على جسمه جعلته منفرداً بين أنواع الرئيسات في سرعة تأثره بالبرد والطقس الرديء، وقد نشأ عن ذلك حاجته إلى الملابس والمسكن. ولو زود «الانسان العاقل» بالفرو، لما كان من المحتمل أن تنشأ لديه نماذج سلوك تتعلق بالاحتشام أو حتى بالاستحمام، ولكان من المستبعد أيضاً أن يشيد البارثينون.

13.3. وظائف الثقافة: السيطرة على الطبيعة والاحتجاج ضدها

بول توران أسون

يُعرفُ فرويد الحضارة Kultur بأنها «مجموعُ الأفعال والمؤسسات، التي تبتعد حياتنا بواسطتها عن أسلافنا من الحيوانات، والتي تخدم غايتين، حماية الإنسان من الطبيعة وتنظيم علاقات الناس فيما بينهم "قلق في الحضارة". فالعلاقة "عمودية" مع الطبيعة تشني إذن العلاقة القائمة بين الناس لتحدد الواقعة الحضارية في شموليتها. فالمحدد «الطبيعي» يذكر منذ البداية، حيث تصلح "الثقافة" أولاً كأداة لحمايةنا من الطبيعة.

هناك إذن انقطاع حقيقي عن "الواقعة" الطبيعية، فمتطلبات «الجمال» و«النظافة» و«النظام» تقتضي نوعاً من «السيطرة على القوى الطبيعية»، وهذا يتطلب بدوره تقييماً للطبيعة من خلال هذه النظرية التي تعترف بقوة «الدوافع». وفرويد يقدر بوضوح عمل الثقافة حيث نجد أنه يشير إلى ذلك العمل الذي يمثل الحدائة البروميتوسية والمتمثل في تجفيف مناطق بحرية في هولندا سنة 1932، ويستعمله ليبرز أن المقتضيات العلاجية تتطلب أن يحل "الأنا" حيشما كان "الهو". الا يتعين إذن أن يتعرض «الهو» - وهو هذه القطعة من «الطبيعة» الموجودة في الفرد - لعملية تجفيف مماثلة لتلك التي قامت بها الثقافة التكنولوجية إزاء «البحر» الذي هو نفسه رمز للهمجية اللامتناهية للطبيعة؟

وفي إطار التعارض القوي بين الطبيعة والثقافة، يطور فرويد ما يمكن أن نسميه رؤية غائية للذة والسعادة (Eudemoniste): الإنسان يود أن يتجنب الألم و"يحس بمشاعر لذة قوية". ويإيجاز فهو يتجه بحكم الطبيعة، نحو «السعادة». لكن نزعة الميل إلى السعادة واللذة هاته لا تضمن ولا تعين أية غائية، «يمكن أن نقول إن ميل الإنسان إلى أن يكون "سعيداً" أمر ليس متضمناً في برنامج "عملية الخلق". وهكذا فإن فرويد - بالتعارض مع الاتروبولوجيين الطبيعيين، لا يصادر على وجود أي تناسق بين "العالم الأصغر" الانساني و"العالم الأكبر". فكل خطوة في التقدم يؤدي ثمنها غالباً بمشاعر القلق وعدم الارتياح، هناك إذن نوع من عدم الارتياح في اقتصاد الإنسان كما هو في الثقافة. [...]

إن فرويد بتشخيصه المتشائم لمظاهر «القلق في الحضارة» يجد نفسه في مواجهة السؤال التقليدي: هل سنكون أكثر سعادة إذا ما تخليتنا عن الحضارة وعودنا إلى العلاقات البدائية؟ والجواب المقدم جواب شكلي: «من المؤكد أن كل ما نحاول بواسطته أن نحمي أنفسنا ضد التهديد النابع من مصادر الألم ينتمي بالضبط لهذه الثقافة نفسها». فأولئك الذين يسعون إلى الرجوع إلى ما يدعونه الطبيعة، من حيث ما فيها من بدائية يقذفون بالأداة الوحيدة التي تمتلكها

لحمايتنا ضد الألم. إذا كانت الثقافة «مريضة» بسبب تسرب القلق إليها، فإن الطبيعة ليست أبداً هي الصحة، فهي لا تستحق إذن لا الثناء ولا الرفض.

وبصورة دالة فإن موقف فرويد حول «العلم» - الخالص أي علم الطبيعة - يوازي موقفه من علم «الثقافة»: فالعلم "ليس هو المثال"، بل هو كل ما يمتلك الإنسان لتسيير وتدبير علاقته "بالداخل" - أي بأوهامه - وبالحقارح - أي بحاجاته، أي كتوسط، منفتح دوماً، بين اللذة والواقع.

ومنذ «قتل الأب»، ذلك الحدث المؤسس للثقافة، والإنسانية تعيش تحت شعار «التخلي» وإضفاء الصبغة الاجتماعية على القلق (الطوطم والتابو). إذا كانت الثقافة تتجلى عبر نوع من الأذى الدائم - وهو ما يشهد عليه وجود العصاب - فإنها مع ذلك نعمة لا تقدر بثمن، من حيث هي قطعة مع حالة الطبيعة البدائية. إن «إضفاء طابع إنساني على الطبيعة» أمر وواجب ضروري، وهو الشيء الذي تعطيه الثقافة شكلاً معيناً رغم أنه يبقى «جاهلياً» إلى حد ما بصفة دائمة عبر مسار الثقافة نفسه.

Paul Taurent Assoun: Nature, Inconscient, et culture chez Freud, In: Analyses et reflexions sur La nature, E.Marketing 1990. p.92 - 93.

4. الثقافة ضد الطبيعة

1.4. الأخلاق ضد الطبيعة

نيتشه

كل الأهواء تمر بفترتين. فترة تكون فيها مؤذية، حيث تُثقلُ كاهلُ ضحيتها بكل الوزن الثقيل لبهيمنتها. وفترة أخرى، متأخرة، تتزوج فيها بالفكر وتأخذ طابعاً روحياً. في الفترات الماضية، بسبب بهيمية الهوى، شنت الحرب على الهوى ذاته. الكل يتقسم على إتلافه. وكل الكائنات البشعة الأخلاقية متفقة على ذلك، «يجب قتل الأهواء». والحكمة الشهيرة في «المهد الجديد» تقول مثلاً: «ويمكن تطبيقها على الجنس...» «إذا كانت عينك تقتادك إلى السقوط فاقتلعها من مكانها». ومن حسن الحظ أنه لم يتبع أي مسيحي هذه الحكمة. إن القضاء على الأهواء والرغبات فقط من أجل تجنب طابعها البهيمي وتجنب النتائج الرديئة لبهيمنتها، فهذا هو ما يبدو لنا اليوم الشكل الأقصى للرداءة. فنحن لا نعجب بأطباء الإنسان الذين يقتلعون الإنسان لكي تكف عن إيلائنا... ولننترف من جهة أخرى بكل إنصاف بأن فكرة «إضفاء طابع روحي على الهوى» لا يمكن تصورها على الأرضية التي ولدت فيها المسيحية. إذ أن الكنيسة الأولى كانت تصارع، كما نعرف، ضد «الأذكياء» لصالح «الفقراء فكراً وروحاً». كيف نتظر منها حرباً ذكية ضد الهوى؟ إن الكنيسة تحارب الهوى ببطورة، فمارسته و«معالجته» هي الإخفاء. وهي لا تتساءل أبداً، كيف نضفي طابعاً روحياً على الرغبة وكيف نجعلها وتقدسها؟ بل إنها ألحت دوماً على اقتلاع (الحساسية، والكرامة الذاتية، وهوى السيطرة، وهوى التملك والانتقام للنفس). والحال أن ضرب الهوى في جذوره ضرب للحياة من جذورها، إن ممارسات الكنيسة مضادة للحياة...

2.4 .الثقافة مجموعة تبريرات لمعارضة الرغبة حسب فرويد

عبد الله العروى

لا يمكن أن نفهم الأفكار والأنظمة الاجتماعية والمذاهب بالنظر إلى القواعد العقلية التي أنشأتها وركبتها. لا بد من الفوص عما يتحكم في العقل ويستخدمه. إن القوة التي تستخدم العقل لتنفيذ أغراضها بوسائل ملتوية هي الرغبة المكبوتة وراء الوعي. كل ظاهرة (فكرة، مؤسسة، مذهب) هي عبارة عن نزوات للرغبة. تتغير العبارة حسب الظروف والأهداف المرحلية. يجب إذن تأويل الاخلاق والأديان والأساطير والاصمال الفنية والأنظمة الاجتماعية والوقائع وكذلك سمات الأمراض، والنكات والأخطاء العفوية... باعتبارها رموزاً تشير إلى أهداف غريزية وأقمصة شفاقة تتمصصها الرغبة. إذا أخذنا هذه الأشياء على ظاهرها أو فهمناها على أساس العقل الذي ركبها فإنها تعود إلى أوهام، إلى ما يظهر حقيقة في حين أنه يستر الحقيقة. وإذا ما أولناها حسب قانون الرغبة فإنها ترشدنا إلى الحقيقة الأساسية التي تجري على الانسان كما تجري على باقي الكائنات الحية.

إن الأفكار أوهام تخدعنا بها الرغبة الانسانية لتصل إلى هدفها. وتعمية الأوهام من صيغة الحق التي يلصقها بها العقل المخدوع هي واجب العلم في رأي فرويد (...). كما أن نتائج العقل عنده هي تبريرات خلقها الانسان المتمدن لمعارضة دفع الرغبة الجارف وذلك استناداً إلى طبيعة الانسان الحيوانية.

عبد الله العروى، مفهوم الادلوجة، الدار البيضاء، 1980، ص. 42-43.

3.4 .تحويل الجنس إلى عمل هو أساس الحضارة ماركوز

إن السعادة، وكذا الحرية ليستا من مهام الحضارة، فهما لا يتلاءمان معها. والتقدم الحضاري يركز على القمع والحد من الرغبات الحسية وكتبها، والتقدم الحضاري لا يمكن تصويره بدون التحويل القمعي للدوافع، وذلك لسبب بدهي وثابت حسب فرويد هو أن العضوية الانسانية يسودها بصورة ابتدائية مبدأ اللذة، وهي لا ترغب في شيء غير تجنب الألم وتحصيل اللذة، والحضارة لا تسمح لنفسها بمبدأ اللذة. ونظراً لأن الناس ضعاف جداً، ولأن الوسط الانساني قاس جداً وشرس فإن التخلي عن الدوافع وقمعها يصبحان منذ البداية هما الشرطين

الأساسيين لكل العمل الشاق الذي تتطلبه الاحباطات والتخليات، وهو العمل الذي يجعل التقدم الحضاري ممكناً بصورة عامة على هيئة طاقة دافعة معدلة تعديلاً قمعياً (...)

لماذا يكون تجاوز مبدأ اللذة من طرف مبدأ الواقع ضرورياً للتطور الحضاري؟ وما هو مبدأ الواقع في حقيقته كمبدأ للتقدم؟ إن العضوية - حسب النظرية الأخيرة لفرويد في الدوافع، بدافعها الأساسيين، «دوافع الحياة ودوافع الموت غير قابلة للتكيف الاجتماعي ما لم توضع حدود لهذه الدوافع، وما لم تقع تقييدها canalisation ومن حيث هي كذلك فهي صالحة لاقامة مجتمع إنساني يستطيع القيام بإشباع مؤكد نسبياً للحاجات. إن دافع الحياة الذي لم يقع التخلي عنه لا يأمل في شيء إلا في تحصيل مكثف ودائم اللذة. ودافع الموت، غير المعاق، هو مجرد النكوص إلى الحالة السابقة على الميلاد، وبذلك فهو يمثل إعداماً لكل حياة. ولكي تتوصل الحضارة والثقافة إلى أن يتحققا فإنه يتعين أن يستبدل مبدأ اللذة بمبدأ آخر يجعل المجتمع ممكناً ويحافظ عليه، وهذا هو مبدأ الواقع. وهذا المبدأ ليس حسب فرويد شيئاً آخر غير التخلي عن إشباع الدوافع بهدف توفير الطاقة وتسخيرها في الانتاج الاجتماعي. إن مبدأ الواقع يتطور على شكل تحويل لكل الدوافع، ولكل الهرمونات، ولكل التحايلات ولكل الاملاءات التي يفرضها المجتمع على الأفراد بغية تحويلهم من حملة لمبدأ اللذة إلى أدوات للعمل قابلة للاستخدام اجتماعياً. وبهذا المعنى فإن مبدأ الواقع مطابق لمبدأ التقدم ذلك لأنه بفضل مبدأ الواقع القمعي وحده، يتم تحرير طاقة الدوافع من أجل العمل الشاق، أي من أجل العمل الذي يعلم تحجيم الرغبات والذي يحط من رغبات الدوافع، والذي بفضل ذلك وحده يستطيع أن يصبح وأن يبقى عملاً منتجاً.

ما هي النتائج النفسية لسيطرة مبدأ الواقع؟ إنها التحويل القمعي لدافع الحياة، هذا التحويل الذي يبدأ مع التحريم الجنسي للأقارب، والذي يقود إلى تخطي عقدة أوديب منذ الطفولة المبكرة، ومن ثمة إلى تخطي سيطرة الأب المتمثل داخلياً، وفي هذه اللحظة يحدث التحويل الحاسم لايروس تحت سيادة مبدأ اللذة، وتحويله إلى مجرد دافع جنسي. وايروس في أصله أكثر من مجرد دافع جنسي، بمعنى أنه ليس دافعاً جزئياً، بل هو قوة تحكم مجموع العضوية، قوة لا يقع تسخيرها لصالح الإنجاب وموضعها جنسياً إلا فيما بعد، وذلك يقتضي تجريد العضوية من قوتها الجنسية، وهو التجريد القادر وحده على أن يجعل من العضوية، من حيث هي حامل لمبدأ اللذة، أداة ممكنة للعمل.

ماركوز، فكرة التقدم في ضوء التحليل النفسي. ضمن كتاب

التحليل النفسي، أسسه الفلسفية ومكتشفاته الكبرى، الرباط

1985، ص. 118-119.

4.4. الشَّافَةُ ضِدَّ الطَّبِيعَةِ

فُرُودٌ

بديهى أن الحضارة من جهتها لا تنزع إلى توسيع الدائرة الثقافية فحسب، بل تسمى أيضاً، وبالقدر نفسه، إلى تضيق الحياة الجنسية. فمنذ طورها الأول، طور الطوطمية، تنطوي سننها على تحظير اختيار الموضوع من بين المحارم، وهو تحظير يعادل في أرجح الظن أعنف بتر وأدمى تشويه فرض على مر الزمن على حياة الحب لدى الكاشن الانساني. وبقوة المحرمات والشرائع والأعراف، تفرض قيود جديدة على الرجال والنساء على حد سواء. لكن الحضارات لا تقطع جميعها هذا الشوط الطويل على هذا الطريق؛ فبنية المجتمع الاقتصادية تمارس بدورها تأثيرها على المقدار الذي يمكن أن يبقى قائماً من الحرية الجنسية. ونحن نعلم جيداً أن الحضارة تصاع بصدده هذه النقطة للضرورات الاقتصادية، لأنها مكرمة على أن تقطع من الحياة الجنسية مقداراً غير قليل من الطاقة النفسية كي تستخدمه لأغراضها. وهي تتبنى هنا سلوكاً مماثلاً لسلوك قبيلة أو طبقة من السكان تستغل وتنهب قبيلة أو طبقة أخرى منهم بعد أن تكون قد أخضعتها لسيطرتها. فالحقوف من تمرد المضطهدين يحفز على تدابير وقائية أشد صرامة. وقد بلغت حضارتنا الأوروبية الغربية، كما تبين لنا، نقطة أوج في هذا المسار. ولكن لئن بدأت بتحظير صارم لأي تظاهرة للجنسية الطفلية، فإن هذا الفعل الأول له كامل تبريره من وجهة نظر علم النفس، لأن حجز رغبات الراشد الجنسية المضطربة لاحظ له في النجاح ما لم يهد له منذ الطفولة بعمل تحضيري. أما ما ليس له من مبرر البتة فهو مفالاة المجتمع المتحضر في هذا السبيل إلى حد نفي هذه الظواهر الجلية السافرة التي ليس أسهل من إثبات وجودها. فاختيار الموضوع من قبل فرد بالغ جنسياً سيحصر بالجنس الآخر، وسيجري تحظير معظم التلبيات الخارجة عن النطاق التناسلي بوصفها انحرافات. وضروب الخطر المتنوعة هذه تعبر عن مطلب حياة جنسية متماثلة للجميع؛ وهذا المطلب، بتعاليه على التفاوتات التي يشتمل عليها التكوين الجنسي الفطري أو المكتسب للكائنات الانسانية، يحرم عدداً لا يستهان به منها من اللذة الأيروسية، ويفدو بالتالي مصدراً لظلم قادح. وقد يتمثل لجحاح هذه التدابير الرادعة عندئذ في الواقعة التالية: فالاهتمام الجنسي يندفع برمته، على الأقل لدى الأفراد الأسوياء الذين لا يتعارض تكوينهم مع هذا النوع من رد الفعل، في «أقنية» تركت مفتوحة، وهذا من دون أن يتعرض ذلك الاهتمام لأي هدر أو نقصان. لكن الشيء الوحيد الذي يبقى حراً وقالتاً من ذلك الخطر، أي الحب الجنسي والتناسلي الغيري، يقع بدوره أسير تقييدات جديدة تفرضها الشرعية وأحادية الزواج. فالحضارة المعاصرة لا تتردد في المجاهرة باعترافها بالعلاقات الجنسية شرط أن يكون أساسها القران الذي لا فصام له، والذي يعقد مرة واحدة ونهائية، بين الرجل والمرأة، كما لا تتردد في إعلان عدم قبولها بالجنسية

بوصفها مصدراً مستقلاً بذاته للذة، وفي إعلان عدم استعدادها للتسليم بها إلا بصفتها عامل تكاثر ما أمكن لأي شيء آخر أن ينوب منابه حتى يومنا هذا.

طبيعي أن ذلك هو الشطط بعينه. وكل إنسان يعلم أن هذه الخطة قد ثبت عدم صلاحها للتطبيق، ولو لأجل قصير. والحق أن الضعفاء هم وحدهم الذين أمكن لهم أن يتكيفوا مع مثل تلك القيود الواسعة على حريتهم الجنسية. أما أصحاب القوة والعزيمة فلم يقبلوا بها إلا مقابل منحهم تعويضاً سيأتي دور الكلام عنه لاحقاً. وقد اضطر المجتمع المتحضر إلى التفاوض عن مخالقات عديدة كان يفترض فيه أن يلاحقها لو أنه كان متمسكاً فعلاً بسننه، وفيما لشرائعه. ولتحاذر، من جهة أخرى، من الوقوع في الخطأ المماكس بتسليمنا بأن مثل هذا الموقف الذي تقفه حضارة من الحضارات لا ينتج عنه أي أذى أو ضرر ما دام لا يحقق مراميها جميعاً. فالحياة الجنسية للكائن المتحضر تعاني، بالرغم من كل شيء، من غيب خطير وخلل فادح، وهي توحى إلينا أحياناً بأنها وظيفة آيلة إلى ضمور، مثلها في ذلك مثل أسناننا وشعرنا بوصفها أعضاء. وأنه ليحق لنا، ولو بوجه الاحتمال، أن نفترض أن أهميتها قد تناقصت بصورة ملموسة بصفتها مصدراً للسعادة، وبالتالي بصفتها تحقيقاً لهدفنا الحياتي. [...]

إذا كانت الحضارة تفرض مثل هذه التضحيات الباهظة، لا على الجنسية فحسب بل أيضاً على العدوانية، فإننا نفهم في هذه الحال فهما أحسن لماذا يمسر على الإنسان غاية العسر أن يجد في ظلها سعادته. وبهذا المعنى، كان الإنسان البدائي محظوظ القسمة في الواقع لأنه ما كان يعرف أي تقييد لشرائزه. وبالمقابل، كان الطمئنان إلى التمتع مطولاً بمثل هذه السعادة واهياً للغاية. وقد قاىض الإنسان المتحضر قسطاً من السعادة الممكنة بقسط من الأمان. لكن لا ننس أن الزعيم في الأسرة البدائية كان هو وحده الذي يتمتع بتلك الحرية الغريزية، أما الباقون فكانوا يقيسون في أغلال الرق من اضطهاده. كان التضاد على أشده إذن في تلك الحقبة السحيقة القدم من التطور الانساني بين أقلية تستفيد من مزايا الحضارة وأكثرية محرومة من هذه المزايا. وتبيننا المعلومات الأدق والأسح التي توفرت لنا عبر أعراف المتوحشين الحاليين بأنه ليس من داع البتة لنحسداهم على حرية حياتهم الغريزية، فقد كانوا خاضعين، بالفعل، لقيود من نوع آخر، لكن أشد صرامة - ربما - من تلك التي تغل المتحضر المعاصر.

إذا كنا ننحي بالملائمة بحق على حضارتنا الراهنة لأنها لا تحقق على نحو كاف نظاماً حياتياً قميناً بإسعادنا - مع أن ذلك هو مطلبنا منها - ولأنها تُبقي على العديد من الآلام التي كان يمكن، ولو بوجه الاحتمال، تلافيتها، وإذا كنا نبذل قصارى جهدنا من جهة أخرى، ومن خلال نقد صارم قاس، كي نكتشف مصادر نقصها وعدم كمالها، فإننا بكل تأكيد لا نمارس في ذلك إلا حقناً الثابت. ونحن إذ نفعل ذلك لا نضع أنفسنا في صف أعدائها. كذلك فإنه من حقنا أن نتأمل منها أن تقوم رويداً رويداً بتغييرات قمينة بتلبية حاجاتنا على نحو أفضل، الأمر الذي سيقينا شر هذه الانتقادات. بيد أننا قد نتألف مستقبلاً مع فكرة أن بعض الصواب القائمة حالياً ترتبط وثيق الارتباط بجوهر الحضارة، ولن تذللها أي محاولة للإصلاح. [...]

5. هل العدوانية طبيعية ام

ثقافية ؟

1.5. الحربُ وإرادة الانتقام محمد عبد القادر الكردودي

إعلم وقني الله وإياك أن الحروبَ لم تزل واقعة بين الأمم منذُ برأها الله وصورها . وأصلها إرادةُ انتقام بعض البشر من بعض . وسببُ هذا الانتقام في الغالب إما غيرة ومنافسة وإما عدوان وإما غضب لله وإما غضب للملك . والأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالفقر كالعرب والترك وأشباههم ، لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشرهم فيما بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه أذنوه بالحرب . ولا غرض لهم فيها سوى ذلك من نيل مرتبة أو ملك ، والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد ، والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والممانعين لطاعتها . فهذه أربعة أصناف من الحروب . الأولان منها حروب بُقي وفتنة والأخران حروب جهاد وعدل . وقد وضع الناس في تدبير الحروب كتباً وترتّبوا فيها ترتيباً قد لا يسع سائر الأقاليم ، إذ لكل أمة في الغالب نوع من التدبير وصنف من الخيلة وضرب من المكيدة وجنس من اللقاء والكرّ وتعبئة المواكب وحمل بعضهم على بعض .

محمد بن عبد القادر الكردودي . كشف الغمة في أن حرب النظام حق على هذه الأمة .

2.5. الدوافعُ العدوانيَّةُ

فرويد

ليس الانسان بذلك الكائن الطيب السّمح ، ذي القلب الطمأن إلى الحب ، الذي يزعم الزاعمون أنه لا يدافع عن نفسه إلا إذا هُوجم ، وإنما هو على العكس من ذلك كائن تنطوي مكوناته الفريزية على قدر لا يستهان به من العدوانية . وعليه ، ليس القريب ، بالنسبة إليه مجرد مساعد ممكن أو موضوع جنسي ممكن ، وإنما هو أيضاً موضوع إغراء وإغواء . وبالفعل فإن

الإنسان نزاع إلى تلبية حاجته العدوانية على حساب قريبه، وإلى استغلال عمله بلا تعويض، وإلى استعماله جنسياً بدون مشيئته، وإلى وضع اليد على أملاكه وإذلاله، وإلى إنزال الآلام به واضطهاده وقتله. الانسان ذئبٌ للإنسان، من يجزؤ، إزاء كل مستخلصات الحياة والتاريخ، على أن يكذب هذا المثل السائر؟ وكقاعدة عامة، إما أن تنتظر هذه العدوانية الفاشمة استفزازاً وإما أن تضع نفسك في خدمة مأرب يمكن الوصول إلى هدفه بوسائل أنعم وأكثر تهذيباً. وبالمقابل تظهر العدوانية في بعض الظروف الملائمة، وعلى سبيل المثال حين تشل عن التأثير طاقة القوى الأخلاقية التي كانت تعارض تجليات العدوانية وتكفها وتقمعها، تظهر إلى حيز الوجود بصورة عفوية وتسيطر على الانسان لشامّ الوحش المقترس الذي لا يُقيم أي اعتبار لجني جنسه. ومن يستحضر منا في ذاكرته فظائع هجرات الشعوب الكبرى أو غزوات قبائل الهون، والفظائع التي اقترحتها المغول المشاهير بقيادة جنكيز خان أو تيمولنك. أو تلك التي لجحت عن استيلاء الصليبيين الأتقياء على القدس، ومن دون أن ننسى، في نهاية المطاف، فظائع الحرب العالمية الأخيرة، فلا مناص له من أن يقبل بتصورنا وأن يعترف بصحة أسسه.

إن هذا النزوع إلى العدوان، الذي يمكننا أن نزيح النقاب عنه في أنفسنا والذي نفترض بحق وجوده لدى الآخرين، يشكل العامل الرئيسي للخلل في علاقتنا بقربنا، وهو الذي يفرض على الحضارة أعباءً كبيرة. ويفعل هذه العدوانية الأولية التي تؤلب بني الإنسان بعضهم على بعض، يجد المجتمع المتحضر نفسه مهدداً باستمرار بالانهيار والدمار. ولا يكفي للمحافظة عليه الاهتمام بالعمل التضامني، فالأهواء الغريزية أقوى من الاهتمامات العقلية. وعلى الحضارة أن تجتهد كل ما في متناولها كي تحدّ من العدوانية البشرية وكي تقلص تجلياتها عن طريق ردود أفعال نفسية ذات طابع خلقي. ومن هنا كان ذلك الاستنفار لطرائق ومناهج تحث بني الإنسان على تقاضيات وعلاقات حب مكفوفة من حيث الهدف. ومن هنا أيضاً كان ذلك التقييد للحياة الجنسية. ومن هنا أخيراً كان ذلك المثل الأعلى المفروض على الإنسان بأن يُحب قريبه كمنفسه، ذلك المثل الأعلى الذي يجد تبريره الحقيقي في أنّ ما من شيء يناقض الطبيعة البشرية الأولية مثلما يناقضها هذا المثل الأعلى. وكل الجهود التي بذلتها الحضارة باسمه لم تُجد حتى الآن فتيلاً. وتحسب هذه الحضارة أن في استطاعها أن تتلاقى الشطط الفظ للقوة الفاشمة باحتفاظها لنفسها بالحق في الاحتكام إلى هذه القوة عينها لمواجهة المجرمين، لكن القانون لا يستطيع أن يطال التجليات الأكثر حذراً وإرهاقاً وخفاءً للعدوانية البشرية. ولا مفر من أن ينتهي الأمر بكل واحد منا ذات يوم إلى أن يري الآمال التي علقها في صباه على أقرانه ما هي إلا أوام، ومن حيث هي أوام على وجه التحديد فإنه ينفق يديه منها. وفي وسع كل واحد منا أن يشعر بمدى ما يكابد في حياته من شقاء وعذاب بسبب سوء نية قريبه. لكن من الظلم أن نلوم الحضارة ونأخذ عليها رغبته في استبعاد الصراع والمزاحمة من النشاط الإنساني. فلا شك في أنهما لازمان، لكن

التنافس ليس بالضرورة عداء ، ومن باب الإساءة إلى التنافس أن تتخذ ذريعة لتبرير العداء .
فرويد ، قلق الحضارة .

3.5. الحالة الطبيعية والحالة الاجتماعية هوبز اللوفياتان

لما كان الوضع الإنساني هو وضع حرب يشنها كل إنسان ضد كل إنسان آخر، أي أن كل إنسان في هذه الحالة لا يحكمه عقله الخاص، ولا يتورع عن استعمال أي شيء يُمينه على الحفاظ على حياته ضد أعدائه، فإن كل فرد في ذلك الوضع يكون له الحق في كل شيء، حتي في جسد الفرد الآخر. ومادام هذا الحق الطبيعي لكل فرد في كل شيء، موجداً فلا يمكن أن يتمتع أحد بالأمان مهما كان قوياً أو حكيماً ليعيش حياته التي منحته الطبيعة إياها. ولذلك فإن من أحكام العقل العامة على كل فرد أن يسعى للسلام ما دام يحدوه الأمل في الحصول عليه، وإذا عجز عن الحصول عليه صار له الحق في السعي وراء مكاسب الحرب وفوائدها. والجزء الأول من هذه القاعدة يضم القانون الجوهري الأول من قوانين الطبيعة ألا وهو: « اسع للسلام واتبعه ».

هوبز اللوفياتان . عن أشلي موتنافر ، البدائية ، عالم المعرفة ، الكويت 1982 ، ص . 299 .

4.5. هل من عدوانية طبيعية ؟ ميشيل كورناتون

هل العدوانية غريزة فطر عليها الإنسان، أم هي رد فعل مكتسب؟ يمكن أيضاً طرح هذا السؤال على الشكل التالي: هل الإنسان عدواني بطبيعته؟ من الصعب جداً معرفة ذلك، فليس ثمة من شخصية تعيش في حالة الطبيعة الصرفة، أي بمنأى عن تأثير العوامل الثقافية. فإن علماء النفس، في تساؤلهم عما هو من الفطرة والمكتسب، انفقوا على الانطلاق من ملاحظات علماء الحياة، الذين كثرت تجاربهم على الفصائل الحيوانية.

من السهل التحقق من أن الحيوانات تحب القتال، ومن أن الحياة اليومية للكثيرين منها تتسم بالعدوان. والقتالية تختلف باختلاف النوع والجنس، وحتى الأفراد. نستطيع أن نلاحظ مثلاً أن الإناث عموماً دون الذكور قتالية. ولكن هل تجيز هذه الملاحظات افتراض وجود عدوانية حيوانية وبالتالي عدوانية طبيعية؟ يبدو أن الجواب بالنفي.

في الواقع، فإن معظم الاختصاصيين في علم الحياة الحيوانية يرفضون إطلاق عبارة « عدوانية » على الحيوان. فالحيوان لم يكن يوماً عدوانياً تلقائياً، نعني بذلك أن العدوانية لدى

ترتبط دوماً إما بحاجاته وإما بالمحرضات الخارجية.

إن القتالة الحيوانية ترتبط بالحاجات، وإنها لترتبط أيضاً بالمحرضات الخارجية. إن الحيوان، إذا ما أخضع للتعذيب، يردّ رداً عدوانياً. من ذلك أن القط الذي يشدّ من ذنبه، يحاول إنشابه مخالبه. وإن تنوع المحرضات كفيلاً بتغيير سلوك الحيوان القتالي. « من وسائل التدريب على القتال، المطبقة على الفئران وسيلة تسترعي الانتباه، فإن الحيوان الذي تحققت له، طوال أيام متتالية، انتصارات عن طريق الإسراع في سحب الخصم الذي أدخل في القفص، يندفع بحماس نحو أول خصم يبدي مقاومة. وكلما كثرت انتصاراته، نمت قتاليته. وإن الانتصارات السهلة تجعل منه حيواناً قادراً على القتال وتحولته إلى مقاتل عنيد. وتنشأ عادة معاكسة، إما بالهرب من المعركة، وإما بالخضوع للأقوى دون قتال، لدى الحيوانات التي أنزل بها تأديب ما. إن هذا المثال يظهر جيداً كل ما هو مكتسب في العدوانية الحيوانية، إن القتالية تصبح حصيلة تدريب.

وتجدر الملاحظة، من ناحية أخرى، إلى أن عدوانية سلوك الحيوان مرتبطة بالتنظيم الاجتماعي الذي نجده لدى بعض الحيوانات. إن الحياة الاجتماعية مصدر نزاعات ومعارك بين الأسراب أو الرهوط وحتى داخل صفوفها، من أجل المحافظة على المراتب. إلا أن علماء العادات يرون أن هذه المعارك هي في أغلب الأحيان « معارك رمزية ». وهذا ما جعل ريمون أرون يقول في أحد مؤلفاته: « أن يأكل الأحياء بعضهم بعضاً، وأن تأكل الحيوانات النباتات، والأسماك الكبيرة الصغيرة، والذئاب الحراف، أمر لقتنا إياه المعلمون والكتب في المدرسة. ولكنهم يقفلون التشديد على واقع آخر ليس دونه دلالة، وهو أن الحيوانات العليا لا تقتل داخل الفصيلة الواحدة، ولا تنظم معاركها. وقد يحدث للذئاب أن تقتل فيما بينها، ولكن رادعاً غريزياً يحول دون اقتالها حتى الموت، فالحيوان المقهور الذي يسلم عنقه لأنياب خصمه، لا يجهز عليه. أما إذا كان يراد إبراز وحشية الإنسان، بمقارنته مع أحد الحيوانات الكاسرة، فلا بد عندها، يقول ريمون أرون، من حسن اختيار هذا الحيوان الكاسر (ولنذكر المثل، الإنسان للإنسان ذئب). ويصدد هذا الأمر، فإن ملاحظات كثيرة حول قتال الحيوانات قد حملت لورتنس على التأكيد بأنه كلما ازدادت قدرة الحيوانات على الفتك، وتوفرت لديها فرص إصابة الخصم بجراح، كلما نمت قدرتها على وضع حد للمعركة.

وفي نهاية الأمر، فإن ملاحظة الحيوانات لا تجيز إقامة الدليل على وجود أساس طبيعي للعدوانية، يتبدى من خلال غريزة مستقلة. وإن ارتكاساتها العدوانية إنما هي آليات تكيف ليس إلا. هل ينطبق الأمر نفسه على الإنسان؟ إن الملاحظ هو أن الإنسان لا يكتفي بالتكيف مع البيئة، بل يستطيع تغييرها، « هو الكائن الوحيد بين جميع الكائنات الحية، الذي يستطيع أن يهدم، وأن يهدم حتى ذاته، ولكنه أيضاً يستطيع أن يشن هجوماً لم يستقر من أجله، كما يعنيه أصل الكلمة، بل قد تستهويه لذة التدمير، وبعبارة أخرى، فإن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يمارس عدوانية حقيقية ». ينبني التأكيد على ذلك، فإن « الأنتروبولوجيين »، أي العلماء

الذين يدرسون تصرفات الأجناس الحيوانية، يرون أن العدوانية سمة إنسانية صرفة. ولكن السؤال يظل مطروحاً، هذه العدوانية التي ينفرد بها الجنس البشري، هل لها أساس طبيعي، أم هي نتاج ثقافي؟ إن علم الحياة في حالته الراهنة، لا يعطي جواباً نهائياً عن أي من هذين السؤالين. ومع ذلك يبدو لنا من المهم، قبل أن نطّلع على أبحاث التحليل النفسي بهذا الصدد، أن نورد اكتشافاً حديثاً في أحد أقسام علم الحياة، وهو علم الوراثة.

إن الظروف المخففة ما كان ليُعبّر عنها إلى اليوم، أثناء المحاكمات، إلا بمصطلحات علم النفس الاجتماعي والطب. فهل سيعترف في المستقبل بلا مسؤولية مجرم ما على الصعيد البيولوجي، أي على صعيد الصبغيات؟ وعلى هذا فإن البحار ريشار سبيك الذي قتل في شيكاكو سنة 1966، في أقل من ساعة واحدة، ثماني مرضات، قد يسعفه الحظ قتلنى محاكمته، لأنه صاحب صبغية إضافية. فإن عدد الصبغيات ثابت. وقد بات معلوماً، منذ سنة 1956، أن مجموع الصفات الصبغية لدى الإنسان (وهو تعريفه الصبغي) يحتوي 46 وحدة صبغية، منها 22 زوجاً متشابهون كلياً، في حين أن الزوج الثالث والعشرين، وهو زوج الصبغيات الجنسية، يختلف لدى الرجل والمرأة. فهو يتكوّن من صبغتين متشابهتين، وكلاهما (X)، ويتكوّن لدى الرجل من صبغتين مختلفتين، إحداهما (X) والأخرى (Y). وقد أثبتت ملاحظات كثيرة أن الأفراد الذين يتميزون بعدوانية خاصة، والذين اعتقلوا بسبب ارتكابهم شتى أنواع العنف، تظهر لديهم، في أغلب الأحيان، حالات من الشذوذ في صبغياتهم الجنسية. فإن زيادة (X) واحدة أو إثنين قد تسبب تخلفاً عقلياً، ولكن زيادة (Y) واحد قد يكون لها تأثير على الفرائض الإجرامية. ولئن ثبت وجود نسبة كبيرة من صبغية (Xyy) (وهي غير طبيعية) في ما بين المجرمين، فقد لوحظ أن بعض من يمتلكون (Xyy) هم أناس طيبون. ويبقى من الضروري إقامة الدليل، في بعض الحالات، على أن وجود هذا الصبغي الإضافي يدفع حتماً إلى العنف والإجرام، فيتحرر بذلك المجرم من أي مسؤولية. وفي الوقت الراهن، فإن الاختصاصيين يتفقون على الاعتقاد بأن الشذوذ الصبغي يسهل الجريمة ولا يحتمها.

إن وجود صبغي إضافي قد يفسر يوماً العدوانية المفرطة التي تتبدى في أعمال اجتماعية، ولكنه لا يفسر العدوانية الطبيعية التي تميز كل إنسان. وفي الواقع فإن علم الحياة وعلم النفس الحيواني يؤكدان أن العدوانية لا تظهر إلا في الكائن البشري. ولكنها مع ذلك لا يقدمان الدليل على أنها سمة طبيعية. إلا أن العدوانية حتى ولو لم تكن محض طبيعية، تصوب جذوراً عميقة في طبيعة الإنسان ذاتها، كما يبيّنه التحليل النفسي.

التحليل النفسي للعدوانية

إزاء عجز علم الحياة عن تبيان ما هو طبيعي في العدوانية، هل يجب التأكيد بأنها ليست سوى ظاهرة ثقافية؟ أن تكون العدوانية مكتسباً ثقافياً، فهذا واقع ثابت، إذ أنها لا تظهر إلا لدى الإنسان، انطلاقاً من اللحظة التي تتخطى فيها الطبيعة ذاتها إلى ثقافة. ولكن التأكيد على

السمة الثقافية للعدوانية، لا يعني أننا ننفي وجود منطلق لها في الطبيعة. وفي الواقع لا يجوز السقوط في الملائكية الثقافية، التي إذ تتجاهل الحتميات المحيطة بالإنسان من كل جانب، تجعل من العدوانية مجرد ظاهرة ثقافية مُلحقة، ليست بضرورية ولا دائمة. فإن الطبيعة، من حيث كونها أحد أصول الإنسان، حاضرة أبداً فيه، بما في ذلك عدوانيته، التي تدين، مع ذلك، بإمكان ظهورها للثقافة وحدها.

لكي نبين على نحو أفضل ما تدين به العدوانية للطبيعة والثقافة على السواء، سوف نقول إنها غريزة، ونعني بذلك أن الغريزة اندفاعة بدائية في جهاز الإنسان، تخضع للتبادلات الاجتماعية. فإن الاندفاعات الحيوانية تصبح، بتأثير الواقع الخارجي، غرائز بشرية. وأن «تتركزها» الأصلي في الجهاز واتجاهها الأساسي لا يتغيران. إلا أن أهدافها ومظاهرها تخضع لبعض التبدلات.

من هنا كان كلُّ وهم الذين يرون أن العدوانية ليست إلا اندفاعة شريرة «حيوانية» إلى حد ما، يجب العمل على مكافحتها حتى استئصالها. فإنه يبدو أن الكثيرين يتصورون العدوانية على نحو خاص بعض الشيء، ففي حين يكون الإنسان صالحاً بطبيعته، تكون العدوانية ثمرة الخطيئة، الخطيئة الفردية والجماعية، ولقد أسهم فرويد أكثر من سواء في وضع هذه النظرة الساذجة للأمور موضع تساؤل. فقد جاء في «قلق في الحضارة» «ليس الإنسان قطعاً ذاك الكائن الطيب، ذا القلب المتعطش إلى الحب، والذي يقال عنه إنه يدافع عن نفسه عندما يهاجم. بل هو، على العكس من ذلك، كائن يتحتم عليه أن يضع في حساب معطياته الغريزية، نصيباً كبيراً من العدوانية... فالإنسان، في الواقع، يُغريه أن يشبع حاجته إلى الاعتداء على قريبه، ويستغل عمله دوماً تعويض، ويستعمله جنسياً من دون موافقته، ويستولي على سلبه ويذله، وينزل به الآلام، ويضطهده ويقتله.» وهذا يعني أن العدوانية ليست أمراً عارضاً، بل من مقومات الكائن البشري الانتولوجية.

لم يعد يجوز جهل ما كشفه فرويد عن أصول العدوانية، أيما كان الرأي بشأن التحليل النفسي. فإن فرويد تصور العدوانية، لفترة طويلة، على أنها اندفاعة مرتبطة باندفاعة الليبيدو دون سواها، وهي بالنسبة إليها أشبه ما تكون بتابعة. فإن الليبيدو، «غريزة الغرائز» تلك، هي الطاقة الحيوية التي تدفعنا لأن نحيا ونعمل ونتمتع، ذلك هو «مبدأ اللذة». ولكنه تحتم على الإنسان أن يأخذ بعين الاعتبار بعض القيود، ويتخلى أحياناً عن الملذذ. فالطفل مثلاً يريد استملاك أمه، فيما هي ترفض له ذلك، فتنشأ أولى الرغبات الإجرامية. بذلك تكون العدوانية جواباً على الحرمان التي يفرضها «مبدأ الواقع»، تلك القوة الكابطة التي تعلمنا «تعبير رغباتنا بدلاً من نظام الكون».

وهي موجهة في الوقت نفسه ضد الذات (ماسوشية) وضد الآخر (سادية). ولكن كيف السبيل إلى التوفيق بين هذه السادية الماسوشية والحب، وبين الخنان والقلق؟ إن فرويد، إذ يمجز

عن أن يستنتج من الليبيدو اندفاعه الاساءة إلى موضوع الحب، يخلص إلى الاعتراف بوجود اندفاعه هدامة لا يمكن ردّها إلى الليبيدو، وأن كانت لا تنفصل عنها. يقول فرويد، « كيف يسعنا أن نستنتج الحب Eros الذي تقوم وظيفته على المحافظة على الحياة وتمهدها، ذلك الميل السادي للاساءة إلى الموضوع؟ ألا يجوز لنا التسليم بأن هذه السادية ليست، حصراً، إلا غريزة موت فصلتها الليبيدو النرجسية عن الأنا، وما عادت تجد ميداناً لنشاطها إلا حيث تتوضع؟ عندها تترفع السادية نفسها في خدمة الوظيفة الجنسية. ففي مرحلة تنظيم الليبيدو القموي يلتقي الاستملاك العسقي مع تحطيم الموضوع. فيما بعد يصبح الميل السادي مستقلاً، وأخيراً في المرحلة الجنسية بحصر المعنى، إذ يصبح الإنجاب غاية الحب الرئيسية، يدفع الميل السادي الفرد إلى الاستيلاء على الموضوع الجنسي والسيطرة عليه، بقدر ما يتفق ذلك مع الممارسة الكاملة للعمل الجنسي». نرى أن فرويد مضطر لأن يفترض وجود فئتين رئيسيتين بين الغرائز، غرائز الحياة Eros وغرائز الموت Thanatos. وسوف يكتب في مؤلفه، «التحليل النفسي ونظرية الليبيدو»، «يبدو لنا أن غرائز الجنس وغرائز الموت لدى الكائنات الحية قد تألفت بانتظام تحت شكل أخلط وقد تقوم الحياة على ظهور النزاعات والمداخلات القائمة بين هاتين الفئتين من الغرائز. وقد تمنح الحياة الفرد انتصار الغرائز الهدامة بواسطة الموت، ولكنها قد تمنحه أيضاً انتصار الحب Eros بواسطة الإنجاب.» هنا تكمن الازدواجية العدوانية، فهي تضمن الحياة وبقاء الجنس، في حين أنها تقود إلى الموت.

إن العدوانية هي، في الوقت نفسه، ظهور اندفاع الموت واندفاع الحياة. ليس في هذا ما يدهش، إن سلمنا مع فرويد بأن منطلق الوجود الإنساني يسير بصرامة هذا القياس الصوري. في البدء كان الموت، والحال أن الحياة تسعى إلى استعادة بدتها، إذن فغاية الحياة هي الموت. فإن ميل الاندفاعات للمودة إلى حالتها الأصلية، الموت، يكرس أولوية غريزة الموت التي تبتدى في الخارج بالعدوانية. وفي نتيجة الأمر، فإن ما تتصف به العدوانية من تمايز يرتكز في نظر فرويد على اندفاع الموت.

إن تطور النظرية الفرويدية على جانب من الأهمية، لأنه يعني أن العدوانية لم تعد مجرد نتيجة لأشكال الحرمان الطفولي. فليس إشباعها كفيلاً بإزالة العدوانية، وهي لا تُستأصل. هذا هو تماماً ما رأينا. ألا أننا، على اعترافنا بصحة تحليل فرويد، لسنا نسلم بسبب ذلك معه، بأن مبدأ الموت هو الذي يحكم بصورة نهائية الوجود الإنساني كله. ليس لأننا نخشى ما ينطوي عليه هذا المبدأ من تشاؤم، كما يخشاه الكثير من الأطباء النفسانيين، الذين يؤثرون تجاهل اندفاع الموت هذه، التي أتقن فرويد ملاحظتها، بل لأننا نرى أن الحياة هي اليوم أبعد ما تكون عن اعتبارها مجرد تكرار للحياة واستمرار لها. فإن الأيروس Eros يجعل الحياة في التخلف، وفي التجدد المستمر للذات وللعالم، في حركة لا تهدأ، تنطلق من بدايات إلى بدايات، عبر بدايات لا تنتهي. فنحن نعتقد مع إيفور كاروزو بأن الحياة هي مزيد من حياة أيضاً، وأنها تكتسب

باستمرار صفات جديدة، على النقيض من الموت الذي لا يعرف التطور. فهو يقول في ذلك، «لا يسعنا أن نؤيد فرويد في نفيه لوجود مبدأ ينظم الحياة، ويستطيع أن يتطور ويتخطى ذاته نوعاً لا كما أن (إيروس) لا يسعه إلا أن يتقدم. وإنه ليحق لنا ويتوجب علينا أن نفترض «طوبائية»، يتصر بموجبها (إيروس) على خصمه الموت Thanatos ودمجه معه في حالة جديدة ييلفها الكائن الواعي. ولا مفر لنا من التفكير في هذه «الطوبائية»، لا لشيء إلا لأن الكائن الحي الواعي قد بزغ من الكائن ما قبل الحي، وما قبل الواعي، ويتجاوزه مكتملاً وإياه في نوعية جديدة».

إن فرويد جعلنا ندرك أنه من العبث مقارنة العدوانية بطريقة مباشرة. إلا أننا نستطيع أن نبذل من أهدافنا وأشكالها، بحيث تسخر للحياة أكثر منها للموت. فالعدوانية، كما رأينا، تستهدف دوماً أمرين. فهي تحشد طاقتنا، لتمد الحياة بأسباب البقاء، وعندما تكون قوة تدفعنا إلى العمل والحياة والكفاح، من أجل الحفاظ على التوازن بين الرغائب والواقع. إلا أن العدوانية تدفعنا إلى الرغبة في الموت، وإلى الاستسلام لهدوء الموت في المادة الجامدة. إن هاتين القوتين، المتعارضتين والمتواطئتين معاً، هما في أصل الازدواجية العاطفية التي تلازم النفسية البشرية. فإن إرادة الحياة عدوان، لأنها فتح لا يكتمل أبداً. إلا أن في أعماق كياناتنا أيضاً غريزة موت تدفعنا إلى إنزال الموت بأنفسنا، أي إلى توجيه العدوان ضد أنفسنا، وكأني بنا نعاقب أنفسنا، بسبب أننا نريد مواصلة الصراع من أجل البقاء، أو نجتنب أنفسنا الآلام النابعة من رغائبنا اللامعقولة.

إن الحياة الجنسية تكشف، على نحو خاص، تلك الإزدواجية التي تجعل العدوانية جنسية، والإثارة الجنسية عدوانية. لذا كان بحكم الوهم التفكير في تطهير الحب من كل عنصر عدواني. وقد أجاد فرنسوا دويكرثس إذ كتب يقول: «في الحقيقة، إن ما يقتضيه العمل الجنسي الإنساني، من تهيئة نفسية في سبيل أعظم اكتمال له، هو استبدال العدوانية الحقيقية بعدوانية مجابية ومسالمة، أي تنفيذ لعبة اتصار الحب على العداوة، بحرية داخلية» إن هذه اللعبة، إذ تمهد للحب، تمس أكثر الأمور خاصة وحميمية في الحوار الجنسي. وعنها لا يسعنا إلا أن نردد مع باسكال «في الحب، الصمت خير الكلام». ولنوضح بهذا الصدد أن اللعبة الجنسية تأتي نتيجة تحوّل في العدوانية وفي الواقع، فإن نواحي المجتمع المتعددة تسبب حرمانات تستثير العدوانية الهدامة. فإن حياة الفرد الجنسية كانت في المنطلق «مشحونة بعدوانية جادة واستملاكية، تروضها وتخضعها لها. وكان الانحراف أبرز برهان على ذلك، فالنزاعات إلى الهجوم والقتال والتدمير المتبادل كانت تشارك كعناصر مسيطرة في التوتر الذي تحدته المثيرات الجنسية. وفي نهاية التطور، تنقلب علاقة التبعية انقلاباً تاماً، فتصبح النزعات العدوانية ثانوية وتابعة، دون أن تتلاشى كلياً. وهي، بعد إذ رُوّفت وضبطت، صارت رهناً بتصرف المحبين، فلا يأخذان بها إلا بقدر يحقق التوتر الأمثل لجسديهما، دون أن يتحوّل هذا التوتر إلى ألم على الإطلاق».

لن يكون من الممكن أبداً تقليص ازدواجية النفسية البشرية تقليصاً تاماً (علماً بأنها

ضرورية). ولكننا نستطيع أقله البحث عن وسائل كفيلة بالمساعدة للسيطرة على العدوانية، لكي تصلح للحياة، وليس لهدم الذات والآخرين. أوليست الثقافة، وفي مقدمتها التربية، خير جواب يواجه به المجتمع الموت ؟

ميشيل كوفاتون، جذور العنف، ضمن كتاب، المجتمع والعنف، بيروت، 1985، ص. 60 - 68.

5.5. النَّزْعَةُ التَّدْمِيرِيَّة

إيريك فروم

إن دراسة بعض الظواهر الاجتماعية والشعائرية القديمة قد تُوحى بأن النزعة التدميرية لها جذورها النظرية في طبيعة الإنسان. إلا أن التحليل المتعمق لدلالات هذه الظواهر يشي أن كل الممارسات التي تؤدي إلى التدمير ليست ناتجة بالضرورة عن «شفق بالتدمير». وخير مثل على ذلك ما نسميه اليوم بـ «عطش الدماء»، أي الرغبة في إراقة دماء الخصم أو قتله. ذلك أن «الدم» كان يعتبر، في المراحل المتعاقبة للتاريخ البشري، مادة الحياة والحياة وهو أحد العناصر الثلاثة التي تختصر الحياة نفسها إلى جانب الحليب والسائل المنوي، فالأول عنصر الأنوثة، والثاني عنصر الذكورة، أما «الدم» فهو العنصر الذي يتجاوز الفرق بين الأنثى والذكر، إنه «عصارة الحياة». وفي شعائر الشعوب القديمة (البرابيون، والأزتيك) كانت إراقة دماء الضحية وتقدّمها للآلهة تعبير عن رغبة هذه الشعوب في استرضاء آلهتها أو في التكفير عن الذنوب. وفي الاحتفالات الباخوسية كان إتمام «السر» الطقوسي لا يكتمل إلا بأكل لحم الحيوان النيء بالدماء التي لا تزال فيه. كذلك الأمر بالنسبة لشعائر هنود الهاماثساس في شمالي غربي كندا. وليس غريباً أن نرى في ديانة، قد بلغت درجة عالية من التطور، كالكاثوليكية الرومانية مثلاً، بقايا شعائرية لهذه الممارسات القديمة والتي تقضي بشرب الخمر بعد أن يكرّس بوصفه «دم المسيح». فليس في هذه الممارسات ما يجعلنا نعتقد بأنها تعبير عن نزعة تدميرية بمقدار ما تجسّد رغبة في تأكيد حياة الجماعة ووحدهم. وإذا كان بعض الدارسين يذهب إلى التأكيد بأن إراقة الدماء تعبير عن نزعة تدميرية فطرية لدى الإنسان المعاصر، فإن الملاحظات التي أوردناها في ما تقدّم إنما تهدف إلى عدم تفسير كل سلوك تدميري بوصفه نتاج العملي لغريزة تدميرية في بنية الطبع البشري والنظر إليه على أنه في الغالب محصلة دوافع ونزعات، ليست طبيعية بالضرورة، بل ذات علاقة وثيقة بالممارسات والشعائر الطقوسية الدينية.

الأشكال العنيفة للنزعة التدميرية

إن وثائق تاريخ العالم المتحضّر توفر لنا الأمثلة الكثيرة على ظهور الممارسات التدميرية (العنيفة منها وغير العنيفة). وليس تاريخ الحروب الطويل سوي شاهدنا على ذلك، إذ، في استعراضنا لتاريخ البشر، تتكرّر المجازر وأعمال القتل والتدمير والتمثيل، من السجناء الذين

يتركون أحياء في الملاعب المقفلة عرضةً لأنياب الحيوانات المفترسة، في العصور الرومانية، إلى الحروب الكيميائية، إلى المجازر الجماعية في حروب الطوائف والإثنيات (وعلى الأخص حرب تقسيم الهند حيث بلغ عدد ضحايا الاقتال بين المسلمين والهنود مئات الآلاف من القتلى)، إلى حروب التصفيات السياسية (كما حدث في أندونيسيا عام 1965، حيث تم تصفية ما بين 500 ألف إلى مليون أندونيسي بتهمة مناصرة الشيوعيين)، إلى غيرها من الشواهد على أن ما تسفر عنه هذه النزاعات، من مأس و قتل وتدمير، لا يمكن إلا أن تكون له أسبابه التي تتعدى البنية النظرية للطبع البشري. لأننا لا نستطيع أن نسلّم بالفرضية التي يطلقها د. فريدريمان (1964) وآخرون والتي تجعل من الممارسة التدميرية (الفردية أو الجماعية) سمةً ملازمة للطبع البشري، وأن ثمة عوامل كثيرة ومعقدة تساهم في تكوين هذه النزعة، منها ما هو موضوعي ومنها ما هو ذاتي. فهناك دائماً شروط موضوعية (حروب أو نزاعات دينية أو سياسية، الفقر والازدحام السكاني، الروتين و فقدان قيمة الفرد) تساهم في تغذية النزعات الداخلية والسيكولوجية (نرجسية الجماعة، على الصعيد القومي أو الديني، والنزعة الانتشائية التي تعبر عن رغبة لا واعية في الخروج السحري من الشروط المحددة لأوضاع الذات وطبيعتها). إذن ليست الطبيعة البشرية نفسها هي التي تظهر فجأة في اللجوء إلى هذه الممارسات، بل هي مجرد طاقة تدميرية تدفعها بعض الظروف الخارجية، والأحداث المفاجئة، إلى الظهور.

إيريك فروم، العدوانية المؤذية والعدوانية غير المؤذية. مجلة الفكر العربي المعاصر. بيروت، مركز الانماء القومي، العدد 27 - 28، خريف 1983.

6.5. السلوك العدواني وكوابحه

كونراد لورتر

لقد تحدثت في دراسة حول السلوك المشابه وظيفياً للأخلاق عن الكوابح التي تحد من العدوان لدى مختلف الحيوانات الاجتماعية وتمنعها من جرح أو قتل إخوانها في النوع، وأوضحت أن هذه الكوابح في منتهى الأهمية ومن ثم شديدة التمايز خاصة لدى الحيوانات القادرة على قتل مخلوقات من حجمها. فالغراب يستطيع أن ينتزع بضربة منقار واحدة عين غراب آخر، ويستطيع الذئب أن يفتح بفضة واحدة أوداج ذئب لو لم تكن هذه الكوابح الأكيدة والمختبرة تمنع ذلك. إن الحمام والأرنب بل وحتى الشامبزي لا يستطيع قتل واحد من نوعها بضربة واحدة. لا، بل إن الحيوانات التي تملك أسلحة ضعيفة نسبياً بالمقارنة مع غيرها تملك قدرات أفضل على الهرب تسمح لها بالإفلات من القناصين «المحترفين» الأقدر على الصيد والقتل من أكثر أبناء جنسها تفوقاً. من النادر جداً إذن أن يتمكن حيوان ما في الغاب من أن يؤذي جدياً حيواناً آخر من النوع ذاته، ويستخلص من ذلك أنه ليس هناك أي ضغط يقوم به الاختيار لتطوير الكوابح ضد القتل.

وينتبه مربي الحيوانات - على حسابه وعلى حساب الحيوانات - إلى غياب هذه الكوابح إذا لم يأخذ على محمل الجد الممارك بين حيوانات «مسألة» تماماً. ويحدث ضمن شروط الأسر المصطنعة التي لا يستطيع فيها المهزوم الإفلات من المنتصر بهرب سريع أن يقوم هذا الأخير بقتله بشكل مؤلم ودؤوب، وقد وصفت في الفصل الذي يحمل عنوان «الأسلحة والأخلاق» من كتابي «كان يتحدث مع الثدييات، الخ» كيف أن الحمامة، وهي رمز السلام، لا تتوقف عند أي كايح لدى قيامها بتمذيب واحدة من أخواتها حتى الموت.

لقد أشار علماء الأنتروبولوجيا الذين يدرسون الإنسان الأسترالي غالباً إلى أن هؤلاء الصيادين*، بشائر الإنسان، قد خلفوا لنا هذا الميراث الخطير الذي يطلقون عليه «عقلية اللواحم». لكن هذه الملاحظة تخلط مفهومي اللواحم Carnivore وأكل لحوم البشر Cannibale اللذين يستبعد كل منهما الآخر مع ذلك إلى حد بعيد. وعلينا بالأحرى أن نرثي في النهاية لأن الإنسان لا يملك عقلية اللواحم. إذ أن مصدر المصيبة كلها على وجه التدقيق أن الإنسان في أعماقه مخلوق مسالم لا يملك سلاحاً ليقتل به الفرائس الضخمة ومن ثم فإنه يفتقر إلى صفات الأمان التي تمنع اللواحم «المحترفة» من قتل رفاقها التي تنتمي إلى النوع نفسه. يحدث أن يقتل أسد أو ذئب أسداً أو ذئباً آخر في حالات نادرة وفي فورة غضب. ولكن - وقد شرحت ذلك في دراسة لي عن آليات السلوك المماثل وظيفياً للأخلاق - كافة اللواحم المسلحة تملك كوابح تؤخر بأمان كاف كيما تمنع التدمير الذاتي للنوع.

كانت مثلاً هذه الآليات الكابحة ضد القتل خلال التطور الإنساني غير مجدية، إذ لم يكن على كل حال يملك القدرة على القتل بسرعة، وكانت الضحية المحتملة تملك العديد من الفرص تحصل خلالها على عفو المعتدي بواسطة التذلل والاستعداد للخضوع. لم يكن هناك إذن في مرحلة ما قبل تاريخ الإنسان أي ضغط مارسه الانتخاب وأنتج آلية كابحة تحول دون قتل الإنسان لأخيه الإنسان، حتى اليوم الذي أخل فيه ابتكار الأسلحة المصنعة بالتوازن بين القتل وبين الكوابح الاجتماعية. كان وضع الإنسان في ذلك الوقت يشبه شياً كبيراً وضع يمامة زودتها الطبيعة الساخرة بمنقار غراب، وإننا لنرتعد أمام فكرة مخلوق نرف شأن كل المخلوقات الأولى لما قبل البشرية، ملوحن بضريبة يد قاتلة. وكان يمكن للبشرية في الواقع أن تقضي على نفسها بنفسها بواسطة هذه الاختراعات الأولى لولا هذه الظاهرة الرائعة التي تتمثل في أن الاختراعات والمسؤولية هما نتاج هذه الملكة، وهي ملكة إنسانية بشكل نموذجي، المتجسدة في طرح الأسئلة.

كوتراد لورتر، الإنسان واقعا. مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، 1983، العدد 27 - 28.

* أي نوع من الإنسان الأسترالي - *mustralopithéque*، وهو إنسان قدم استخدم النار والاعجار كأدوات.

فهرس

9. تمهيد

1. تحديدات: في الطبيعة والثقافة

- 1.1 1.1 معنى الطبيعة (ج. فال).
- 2.1 2.1 الثقافة والشافة (بودون وبوريكو).
- 3.1 3.1 الثقافة كأمر واقع (مالينوفسكي).
- 4.1 4.1 المعاني الثلاثة لكلمة ثقافة (سير).
- 5.1 5.1 مفهوم الثقافة (ر. بيلز و هـ. هويجر).
- 6.1 6.1 الإنسان كائن بيو-ثقافي (موان).
- 7.1 7.1 مفهوم الطبيعة في الإبيستيمية الكلاسيكي (م. فوكو).
- 8.1 8.1 من إنسان الطبيعة إلى إنسان الثقافة.

2 . تمفصل الطبيعة والثقافة

1. 2 1. في الحال المدنية (ج. ج. روسو).
2. 2 2. الرغبة الإنسانية والرغبة الحيوانية (أ. كوجيف).
3. 2 3. الانتروبولوجيا الطبيعية (ك. ل. ستروس).
4. 2 4. ليفي ستروس: اختزال الثقافة إلى الطبيعة (ليبانسكي).
5. 2 5. التحريم الجنسي للأقارب.
6. 2 6. اللغة هي الخط الفاصل بين الطبيعة والثقافة (ك. ل. ستروس).
7. 2 7. الإنسان: رحلة من الطبيعة إلى الثقافة.
8. 2 8. من التوحش إلى التحضر (و. ديورانت).
9. 2 9. البدائي في الزمان والمكان (س. ديفيد).
10. 2 10. رحلة حي بن يقظان من الطبيعة إلى الثقافة (ابن طفيل).
11. 2 11. منطلق التاريخ الثقافي للإنسان.
12. 2 12. المظاهر الأولية للحضارة (ق. زريق).
13. 2 13. السوسيولوجيا: ثقافتنا ذاتها مسجلة في خلايانا.
14. 2 14. الطبيعة - الإنسان - الحضارة (فرويد).

3 . ترويض الثقافة للطبيعة

1. 3 . التاريخ في الطبيعة (جودليه) 45
2. 3 . الحضارة وتسخير الجنس (فرويد) 45
3. 3 . الجسم موضوعاً للاستهلاك (ج. بوديارد) 47
4. 3 . اللباس لغة الجسم (ر. بارط) 48
5. 3 . تقنيات الجسد ، النوم (م. موس) 49
6. 3 . سوسولوجية الأحلام 49
7. 3 . دور الحضارة في صياغة الشخصية (ك. كلوكهون) 50
8. 3 . التنفس ذات واقعة ثقافية (سبير) 52
9. 3 . دور الثقافة في صياغة شخصية الفرد وطبعه (م. ميد) 52
10. 3 . المتخيل والرمزي (ل. ألتوسيد) 53
11. 3 . الفطري والمكتسب مترابطان (أ. جاكارد) 54
12. 3 . الإنسان وقابلية التعلم (ر. لثتون) 55
13. 3 . وظائف الثقافة ، السيطرة علي الطبيعة والاحتجاج ضدها (ب. ت. أسون) 57

4 . الثقافة ضد الطبيعة

1. 4 . الأخلاق ضد الطبيعة (نيتشه) 59
2. 4 . الثقافة مجموعة تبريرات لمعارضة الرغبة حسب فرويد (ع. العروي) 60
3. 4 . تحويل الجنس إلى عمل هو أساس الحضارة (ماركوز) 60
4. 4 . الثقافة ضد الطبيعة (فرويد) 62

5 . هل العدوانية طبيعية أم ثقافية ؟

1. 5 . الحرب وإرادة الانتقام (م. ع. الكرودودي) 65
2. 5 . الدوافع العدوانية (فرويد) 65
3. 5 . الحالة الطبيعية والحالة الاجتماعية (ه. اللوفياتان) 67
4. 5 . هل من عدوانية طبيعية ؟ (م. كورناتون) 67
5. 5 . النزعة التدميرية (إ. فروم) 73
6. 5 . السلوك العدواني وكوابحه (ك. لورتر) 74

المؤقتة للمنتشر

بمسئولتها العربي

تختار الكتب التي أنت بحاجة إليها

سلسلة المعرفة الفلسفية

يصدر

* أسس الفكر الفلسفي المعاصر

مجاورة الميتافيزيقا

عبد السلام بنعبد العالي

صدر

* حوار فلسفي

محمد وقيدي

* درس الإبستيمولوجيا (ط. ثانية)

ع. السلام بنعبد العالي وسالم يفوت

* المتن الرشدي، مدخل لقراءة جديدة

جمال الدين العلوي

* التراث والهوية في الفكر الفلسفي في المغرب

ع. السلام بنعبد العالي

* دروس في تاريخ الفلسفة

د. نجيب بلدي / أعدها للنشر الطاهر وعزيز وكمال عبد اللطيف

* ورقات عن فلسفات إسلامية

محمد عزيز الحبابي

* جينيالوجيا المعرفة

ميشيل فوكو / ترجمة أحمد السطاتي وع. بنعبد العالي

* الكتابة والاختلاف

جاك دريدا / ترجمة كاظم جهاد

* كتاب الواحد والوحدة

أبو نصر الفارابي / تحقيق محسن مهدي

الثقافة هي التجسيدُ العقليُّ لميل النوع البشري نحو التمييز عن الطبيعة، وبالتالي عن الحيوان، وبما أن هذا الميل يسكن ثقافة النوع البشري، فإن الثقافة تتجه نحو ترويض الطبيعة تحقيقاً لذلك، سواء تعلق الأمر بالطبيعة الخارجية أو بالطبيعة الداخلية.

لكن الثقافة كثيراً ما تصطدم بالطبيعة - وبخاصة الطبيعة البشرية - وتصادمها حيث تصبح تحكماً تصفياً في طاقة الحياة (فرويد) وحرماناً للإنسان من المتعة واللذة باسم قيم عليا (نيشئه) أو تسخييراً للجسم والجنس خدمة لأهداف الحضارة (ماركوز).

وقد ارتأينا الانفتاح على نقاش تقليدي في تاريخ الفكر، وهو الصراع بين الفطري، أي ما ينتمي إلى الطبيعة، وبين ما هو مكتسب أي ما ينتمي إلى المجتمع والثقافة وما يتوصل إليه بالتعلم وليس ما هو معطى قديماً.

وإذا كانت النصوص المقدمة هنا توسع إلى حد ما إشكالية العلاقة بين الطبيعة والثقافة وتخرج بها عن إطارها التقليدي، إطار الإشكالية الأتربولوجية، فإن هذا التوسيع من شأنه أن يسلط أضواءً أخرى على الإخراج بها من الدائرة البدائية، دائرة انفصال الثقافة الطبيعية لتكشف عن الآليات المستمرة للصراع بين والثقافة، سواء في تكيف الثقافة للطبيعة أو في رد الطبيعة ذاتها على الثقافة.

Biblioteca Alexandrina



0171363

00

To: www.al-mostafa.com